جميل بثينة

تأليف و نظم

عبد الرحمن محمد الساعاتي

obeikandl.com

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

مطبعة حجازى
بجوار قسم الجمالية بالقاهرة
تليفون — رقم ٥٥٤٨٠

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الاهداء

الى ملوك الاسلام وشعوبه . الى أبطال الشرق وحماته الى كل مسلم يرى فى الاسلام سعادته ورقيّه فيعمل لاعزازه ورفع منارته . . . .

والى كل عربىٍّ يرى فى نسبته للعرب شرفاً وإباءً فيحرص على نسبته هذه ويعتزّ بها أيام حياته . ويرى فى لغته قوة وشباباً وفتوّةً فيعمل لنشرها مااستطاع الى ذلك سبيلا . . . .

والى كل شرقى يرى أن الشرق كلّه وطن واحد ويُحِسُّ داء التفرق والتباعد بين الشعوب الشرقية فيعمل على توثيق الرابطة وتوحيد الغاية بين هذه الشعوب المتقاربة المتباعدة .

obeikandi.com

الاهـداء

الى كل قلبين ارتبطا برباط المحبة والوفاء . وتخلقا بالطُهر والعفاف وارتفعا الى سماء العزة والاباء ....

الى كل نفس قساعليها الزمان . وعصفت بهايد الظلم القاهرة

الى كل فتىً طاهرٍ عَف وفتاة طيبة نبيلة أُهدى أول ماخط يراعى فى خدمة المسرح المصرى ؟

المؤلف

obeikandl.com

تمهيد

---

١ - زمن الرواية - صدر الدولة الاموية (فى خلافة عبد الملك بن مروان)

٢ - مكان الرواية - وادى القُرى بين المدينة ومكة عند تيماء - ومصر

٣ - أشخاص الرواية -

جميـــل

بثينـــة

حباب بن ثعلبة — والد بثينة

حوّاش — اخوها

كثّير — صاحب جميل وراويته

معبد — مُغَنٍّ وشاعر مشهور

رباب — جارية بثينة

أم الحسين — أخت بثينة

ليلى ونجيّا — بنات خالتها

فتيات

obeikandl.com

عبد الله بن قطنة عمير بن رمل	رجلان من بنى الأحب من رهط بثينة
نديه بن الأسود	زوج بثينة ومنافس جميل عليها
سهيل	قادم من الحج وناقل أخبار جميل
عبدالله بن مَعْمر	والد جميل
روقا ومسعود	ابنا عم جميل
سالم	أحد السامرين بحى جميل
هند وسعاد	فتيات من حى جميل
الامير عبد العزيز بن مروان	والى مصر من قبل أخيه عبد الملك الخليفة الاموى

النكرات المسرحية

رجال وحاشية وحداة وقوافل

obeikandi.com

الفصل الأول

المنظر الاول

(أمام خيام عبد الله والد جميل فى ديار بنى عذرة . جماعة من)
(العرب فتيان وفتيات فى مجلس غناء وسمر ومعهم جميل وصاحبه)
(كثير . يظهر جميل بحالة حزن وأسى . وبينهم معبد المغنى المشهور)
(يطربهم بأغانيه وهم يستمعون غناءه وعزفه على قيثارته (العود)

أغنية معبد

أمَةَ العُرْبِ سلامٌ للخلالِ الطيِّباتْ
كم لكم من حسناتٍ وعطايا وهباتْ
تكرمون الضيف حقاً بالقِرى والمكرماتْ
دينُكم دين حنيف ظاهر بالبيناتْ
ليس إكراها ولكن دينَ عقلٍ وثباتْ
فاحفظوه كى تسودوا فوقَ كلِّ الكائناتْ

مسعود

سادتى كيف وجدتم معبداً فى غناءٍ يستميل السامعينْ؟

روقا

صوته مُشجٍ ولمْ لا إنه قد غدا حقاً أميرَ المطربين

سالم

ليس هذا الصوت كسباً إنما هو من إعطاء رب العالمين
قد حباه الله مزماراً به أطربَ القومَ وأشجى السامعين
أنت من آلِ لداودَ غدَوْا لقلوب الناس طراً مالكين

معبد

إننى جدُّ سعيدٍ بينكم يا كرامَ العُربِ خيرَ العالمين
لستُ أهلا لثناءٍ عاطرٍ إننى بالشكر للجَمع مَدين

سعاد

مَعبد زِدْنا وأطربْ سمعنا نحنُ فى مجلس أنسٍ سامِرون

هند

غَنِّنا بالله لحناً غنِّنا صغه من وجدٍ ودمع العاشقينْ

كلنا يهوى استماعاً لايرى فيه من بأسٍ ولاخُلقٍ يَشين
لانمل السمع حتى نستمع عند نور الصبح تكبيرَ الأذين(١)

يستعد معبد للغناء و يصلح أوتار عوده ويغني :

(٢) ياليتني قد أجزت الحبلَ نحوكمُ
حبلَ المعرَّفِ أوجاوزتُ ذا عُشُرِ
إنَّ الثواء بأرضٍ لاأراكِ بها فاستيقنيه ثواءَ حقٌّ ذِى كدرِ
وما مللت ولكن زادَ حبكمُ وماذكرتكِ إلاظلتُ كالسَّدِرِ
أذرى الدموعَ كذى سقمٍ يخامرُه
وما يخامرنى سقم سوى الذِّكرِ
كم قد ذكرتكِ لوأجدى تذكركم
ياأشبه الناسِ كلَّ الناس بالقمر

(١) الاذان والاذين والتأذين واحد

(٢) الابيات الخمسة من شعر عمر بن أبي ربيعة

« يبكى جميل ويشد »

جميل

بثينة أجرى اللحن دمعى وانى ... بسكب دموع العين فيك قمينُ
(شهدت بأنى لم تغيّر مودّتى ... وأنى بكم حتى الممات ضمين) (١)
(وأن فؤادى لا يلين الى هوى ... سواكِ وان قالوا بلى سيلين)
(وانى لأستغشى وما بى نَعْسة ... لعل لقاء فى المنام يكون)

كثير (لجميل)

رعتَ قلبى ياجميل بالبكا ... وكذاكَ الحزن ساد الحاضرينْ
فتصبّر بعد هذا تلقَها ... إذْ تراها فى صفاء بعد حين

جميل

يا كثيّر: ذكرها فى خاطرى ... وسلوّى عن هواها لن يكونْ
قد قضينا فى الهوى عهد الصبا ... ووفَينْا لم نكن بالخائنين
ورمانا الدهر بالبين الذى ... فجّع القلبَ وأبكى للعيون

(١) الابيات التى بين الاقواس من شعر جميل

ليت شعرى بعد هذا هل لنا من لقاءٍ أم لقائى لايكون ؟

(يدخل أحد أشراف القبائل قادماً من دمشق وللقوم به سابق معرفة)

الشريف

سلامٌ عليكم جموعَ الكرا مِ وأتباعَ طه نبىِّ العربْ

القوم

عليك السلام شريف القبا ئل ربَّ الحجى والنُّهى والأدبْ

أحدهم

وكيف تركتَ مقرَّ الخلافةِ ؟

الشريف

مامِنْ بلادٍ سواها تُحبْ

تركتُ بها سيداً جهبذاً يُنيلُ المرادَ ويُعطى الأرب

يُقيمُ الحدودَ بِبأسِ الحديـ ـدِ ويُشفقُ اشفاقَ أمٍ وأب

وسلطانُه فى الورى نافذٌ ففى كل صوبٍ تراه وحدب

أخافَ القياصرَ من بأسه فكلٌّ يدينُ لجيشِ العربْ

ومجلسه مجلس زاهر فعلم غزير وفن عجبْ

ومشربُه طاهر رائق فممزوج علم بمزج الأدب

وينمى الى قومٍ نبلٍ وفضـ ـلٍ فنعم الجدودُ ونعم الحسب
ترى الشعبَ حول لواءِ الأميـ ـرِ ففى كل عينٍ تراه وقلبْ
وموكبه بالمهابة حفَّـ يزين الجموعَ إذا ما ركبْ
فلستَ ترى أنفساً حولَه ولكن قلوباً لقوم نُجُبْ
يؤم المساجدَ قصدَ الصلا ة ويعطى اليتامى حقوقا تجبْ
فللمؤمنينَ أمير نبيـ ـل وكل العبادِ له قد أحب
فيجمع ماشتَّ من أمرهم ويحمى الممالكَ ممن سَلَبْ
وشعب سعيد بسلطانه سواء أعاجمهم والعرب

أحد السامرين

لا تُنكروا ما للخلافة من يدٍ إن الخلافةَ عُقدةُ الاسلامِ
يارب ثبِّتْ ركنَها وأعزَّها فى كل عصرٍ بالمقام السامى

أحد السامرين

(وهو شيعى) للشريف

شريفَ القبائل كانتَ المد يحَ لمن للخلافة منا اغتصبْ

وقد كان أولى بها أهلُها وهم آلُ طه كرامُ الحسبْ

الشريف

أبنْ ياصديقيَ ما تبتغى فقولك هذا حديثٌ عجبْ

الشيعى

أصخ ياشريف سماعك إنّا بمُنعَزلٍ عن عيُون الرُّقُبْ
معاويةُ: أصلُ هذا البلا ءِ وأصل الخلاف وأصل التعبْ
تآمر مَعْ عمرو. والاشعر يّ لخلع عليٍّ بسوء الأدب

(يبدو على الحاضرين الالم)

ولم يترك الامرَ بعد عا ي لنجليه سبطَيْ نبيِّ العرب
وبالقهر لا بالرضا نالها فهل بعدها لا يكون اغتصب ؟

الشريف

معاوية سيد فاضل رفيع المقام كريم النسبْ
معاوية من صحاب الرسول وكاتبُ وحيِ النبيّ الاحب
فان كنتَ عن صحبه مخبراً فلا تعدُ فيهم حدود الادب
كذلك عَمْرو وكلُّ الصّحا بِ لهذا الأنامِ نجوم شُهُبْ

فان غلبوا في قتال العد وّ فلله لا للحياة الغلبْ
وإنْ غلبوا صابروا جيدَهمْ وولّوا الى الله وجهَ الطلب
وإن ثار فيهم خلاف عظيـ ـم فكل لصالحكم يَطّلبْ
ولست إذا عبتهم واحداً ولكنّ غيرك عاب وسب
فقل للذى عاب صحب الرسو ل تأدب: تجاوزت حد الأدب
همُ في الجهاد أضاعوا الحيا ة وأنتم أضعتم لها في اللعب

• يزوى الشيعى ناحية وكأنما ملك قلبه حب هؤلاء الصحابة وندم على الخوض فى حقهم ،

شيعى آخر

شريف القبائل لا تتهمـ ـه بسوء الظنون ونقص الأدب
هو الرأى أبداه لم يعتدُدْ وفى السرّ لم يبده فى اللجبْ

سنى

بأذن الشريف ومن فضله ولِمْ لا نخوضُ غبارَ الأدب؟
ولِمْ لا نشاركُكُم فى العلو مِ وابداءِ رأيٍ وراءَ الحُجب؟

الشريف

أبينى فتاتى ولا تُحجمى فنحن سواءٌ أمامَ الأدب

فتلك سُكَيْنَةُ فى يثربٍ محطُّ رحال الكرامِ النجُبْ
زوضُ العلومَ وتملى الفنو نَ وتروى حديثَ نبىِّ العربْ
وتفصلُ فى كبريات الأمو رِ وتحتلُّ فى الفقهِ أعلى الرُّتَبْ
تساجِلُ فى العلم كلَّ عليـ ـمٍ وتسمو برأى الحكيم الأريبْ
وما كان مانعها من علو مٍ ودرسِ البلاغةِ أن تحتجب
وليس بعيـــداً سمُو الفتا ةِ على عهد طه نبىِّ العرب
فزوجاته خُضْنَ بحرَ العـــلو مِ وأمسكْنَ منها بأقوى سبب
روَيْنَ الحديثَ على عهـــده وكنَّ مثالَ التقىَ والأدب

سعاد

(إلى الشيعى)

صدبقك أخطأ فى قوله وفى الرأى ياصاحى لم يُصب
وقمتَ تدافع عن رأيه كأنَّك راضٍ بخلقِ الرَّيبْ
وقد كان أولى به نهيه عن الخوضِ فى مثلِ هذا الكذبْ

مسعود

أمسكوا إن جاء ذكر للصحابة لاتخوضوا
ربكم فيما أفضتمْ عالم إذ ما تفيضوا

روقا

قد كان مجلسنا لِنَسمرَ ساعة والآن لسنا فى الحمى سُمَّارا
لانرضَ يوماً أن تُسبَّ صحابة لسنا نُقِرُّ صديقَنا إن جارا
قوموا بنا

صوت آخر

هيَّا بنا

صوت غيره

هيَّا اخرجوا

وللجلوس

وِعموا مساءً فتيةً وعذارى

• يخرجون و يتفرقون أثناء خروجهم من نواحى المسرح كل الى ناحيه ولا يبقى فى المسرح الا الشريف ومعود وجميل وكثير.

الشريف

ومتطلعا إلى جميل

مالهذا الأحَ مُغضٍ كاسفٌ مابه ياليتَ شعرى من يكونْ

كثير

سيدى هذا جميلٌ صاحبى برَّح الشوق به فهو حزين
هو اسمى من أحبَّ فوفى حبَّ طهرٍ فهو أوفى العاشقين
ليس يخفى أمره فى قومه حبه باقٍ على مرِّ السنين
وله شعر رقيق صادق سوف يبقى ليس تُفنيه القرون

الشريف

بُنىَّ جميل كفكف الدمع ساعةً فمالى أرى منكَ البكاء يزيدُ ؟
تصبَّرْ فانَّ الله ليس بغافلٍ عسى رحمةٌ تُدنى الذين تريد

جميل

(فى أسى ولوعة)

تصبرت جهدى سيدى غير أننى أرى الصبرَ ينمى حبَّها ويزيد
فلست بسالٍ عن بثينة ساعةً (ولا حبها فيما يبيد يبيد)

هواكِ مقيم يا بثينة فى الحشا وغير دنوِّى منك لست أريد
وانى لأرجو يا بثينة أن أرى نضارةَ وجهٍ لست عنه أحيد
(لقد تلتقى الاهواء من بعد يأسة وقد تطلب الحاجات وهى بعيد)
فان قلت مدِّى كفَّ وصلٍ لمغرمٍ فانَّ الذى نُدنِينَ منكِ سعيد
وان قلت ردِّى بعضَ عقلى أعش به مع الناسِ قالتْ ذاك منك بعيد
لقد بُغِّضتْ عندى الحياة جميعُها وتحلو بقربٍ يا بثين يعود
يقولونَ اعرضْ عن هواها لغيرها عفا الله عنهم انَّ ذا لجحود
حياتِىَ وقف للوفاءِ وبَثْنَةٍ وكلٌّ وفِىٌّ فى الورى سيسود
وعهدِىَ محفوظ وقلبىَ طاهر وبرهان حبى ثابت وأكيد
فيا ربِّ إن كانَ الوفاءُ مذمّةً فانى ذميم بالوفا وسعيد
ويا ربِّ أضنانى التشوق والأسى ودمعى بما أخفى الفؤاد شهيد
ويا ربِّ لم تُغنِ التمائم والرُّقىَ وإنَّ اشتياقى نحوها لشديد
فيا ربِّ قرب دارَها ومزارَها فقد عيل صبرى والغرام يزيد

«ويخر جميل مغشياً عليه»

كثير

. وهو يتعرض جميلا ويميل عليه بالشفقة وحنان .

فديتُك نفسي ياجميلُ وانني ... سأبقى وفياً والوفاء قليلُ
صحبتك دهراً كل مافيك طيبٌ ... وكلُّ الذي تأتيه منك جميل
وفاءٌ واخلاصٌ وحبٌ وعفةٌ ... فأنتَ فريدٌ في هواك نبيل
نسيتَ بمن تهوى الحياةَ ومابها ... وكلُّ متاعٍ في الحياةِ يزول
سأقضيكَ حقاً للوفاءِ وصحبةٍ ... إذا خانَ إلفٌ أو جفاكَ خليل
فقد هضَمَ الناسُ الوفاءَ حقوقَهُ ... فليس الى حفظ العهودِ سبيل
أفقْ قد تنال الوصل ممن تحبه ... ولا تبتئسْ واصبر فذاكَ جميل

الشريف

لقد روَّعتْ نفسي وجلَّ الذي أرى

(ومشيراً الى كثير)

فماذا ترى يا صاحبي و تقول ؟
أراه محباً صادقاً في وفائه ... كعلاه اكتئاب دائم وذهول
وفاءعلى رملِ الصحارى وقفرِها ... وغدر بقصرٍ يزدهي ويطول

ونبلٌ تغطيه ثياب خليقةٌ ومافى ثياب الخزّ منه مثيل
فهلاّ ترى شيئاً يُرجّى لطبّه فقد زادَ اشفاقى عليك جميل

كثير

بحثنا طويلاً عن داوء فلم نجدْ وأعيا الدواءِ الطبَّ فهو كليل
ولكنه يصحو اذا سمع اسمها ويشرح ما يلقى وذاك يطول

معبد يغنى

(علقت الهوى منها وليداً ولم يزل الى الآن يُنمى حبّها ويزيدُ)
(وأفنيتُ عمرى فى انتظارى نوالها وأبليتُ فيها العمرَ وهو جديد)
وليس وفائى يا بثينةُ بالذى يزول ولكنْ ثابتٌ وأكيد

(يفيق جميل ويقلب النظر حوله بحيرة وولهٍ)

جميل

بثينةُ ماذا قد سمعتُ وما الذى سرى فى فؤادى أم خيالٌ عرانيا؟
بثينة فى أذنى يرنُّ رنينُها فهيّجَ أشواقى وأجرى بكائيا
بثينة من ذاك المنادى ومابه وهلاّ يرى حالى فيرثى لحاليا؟
يغنىّ باشعارى ويدعو حبيبتى عفا الله عنه قد تجاهل مابيا

فهل خنتِ عهدى يابثينةُ أم تُرى هو الودُّ باقٍ والعهود كماهيا ؟
وهل أنت دونى تستجيبى دعاءه وهلاَّ يُذَكِّرُكِ النداءُ بشانيا ؟
أجيبى فانى من هواكِ مشرَّدٌ أباحوا لقتلى واستحلّوا دمائيا
(أتانِىَ عن مروانَ بالغيب أنه مُقيدُ دمى أو قاطعٌ من لسانيا)
(فنى العيس مَنْجاةٌ وفى الأرض مهرب
إذا نحن رقَّعنا لهن المثانيا)
وحيدٌ وانى بينَ أهلى وجيرتى غريبٌ وبيتى جانبى وديارِيا
اهيم على وجهى وأترك مَوْطِنى لعلَّ نسيماً منكِ يُطفئ مابيا
فحيث تكونى فالغرام يقودُنى وكلُّ ديارٍ أنتِ فيها ديارِيا
أرى القلب وثّاباً اليكِ فحيثُما تكونى يكن سيْرى وإرسال دمعيا
الفتُ ظباءَ القفرِ والوحشَ فى الفلا وقد زاد تبريحى وعزَّ دوائيا
وعندِىَ منكمْ يابثينةُ موعد أعدُّ له يومى وأسهر ليليا
سأمضى لموعدَ بثنه ولقائِها فامَّا لقاءٌ أو فناءٌ لذاتيا

(ستار)

المنظر الثانى

(يرتفع الستار عن جميل وصاحبه كثير فى منتصف الطريق)
(يبدو حى جميل وبثينة تحت شجرة من شجيرات النخيل ينتظران)
(قدوم بثينة)

جميل

ليتَ شعرى مابقلبى بعدَ حُبِّى والوفاءْ ؟
خَفَقانٌ واضطرابٌ وقنوطٌ أمْ رجاء ؟
صرتُ لمْ ينفكَّ طرفى شاخِصاً نحوَ السماء
كلُّ همِّى أن أراها هل بشيرٌ باللِّقاء ؟

(تمر قافلة من الحجاج قادمة من مكة الى المدينة لزيارة الرسول
صلى الله عليه وسلم وتردد الأنشودة)

أيها الحادى ترفَّقْ بقلوب العاشقينْ
شاقَ قلبى ذكرُ نجدٍ وديار الآمنين
يثرب دار الأمانى كمْ ليثربَ من حنين
نقصد الهادى ونسعى لامام المرسلين

كلٌّ من زارك طه فاز بالخير المبين
للحضارة والنضار ة جئت تدعو العالمين
فصفاءٌ وأخاءٌ بينَ كلِّ المسلمين
أنتَ للأيام تاجٌ صادقٌ بَرٌّ أمين
حُبُّ طه فرضُ عَيْنٍ وهو نور للعيُون
قال من زارَ مقامى كان ضمنَ الفائزين
بالشفاعةِ فى القيا مة والأنامُ حائرون
لستُ أنسى عهدَ طه أو عهودَ الراشدين
فاسألوا التاريخ يُنبي عن جهاد الصادقين

جميل

(فى دهشته)

عجبٌ بأذنى صوتُ إنشادٍ دَوَى
ماذا سمعتُ ؟ ومن عساهُ ينادى ؟

كثير

هذا ركاب للمدينة قاصدٌ شدَّ الرحالَ الى النبيِّ الهادى

يرجو بزَوْرته لطه أن يرى بِراً وفضلاً يُرتجى لمعاد
وَيَحُثُّ كُلَّ مُخلَّفٍ وقاعدٍ يلهو بما يلهو وراء الوادى
ويقول جِدُّوا السيرَ نحوَ محمدٍ كم للنبيِّ فضائلٌ وأيادِ
فهو الذى جمع العبادَ على التقى من بعد تفريقٍ وطولِ بعاد
من حجَّ ثم نوى الرجوعَ فلم يزُرْ قبرَ الحبيب فقد جفا للهادى
أمَّا الذى زار الحبيبَ بخشيةٍ يشفعْ له وينِلْه كلَّ مُرَادِ

جميل

نفسى فداءٌ للرسول فإنه فاق الملوكَ وفاقَ كلَّ جوَادِ
برٌّ بأمَّتِه رحيمٌ عادلٌ وحديثُهُ فى الغَوْرِ والأنجادِ
يرعى العُهودَ ويحمل الكَلَّ (١) الذى
عَجَزَتْ يداه عن الوفا وسَداد
ويُجِلُّ حبّاً طاهرا عَفاً كما وردَ الحديثُ وجاءَ بالاسناد
من حَبَّ طُهراً فهو ناجٍ ظافرٌ يومَ القيامة فى المعاد ينادى

(١) اليتيم

أناقد عففتُ وذاك حبٌّ نادرٌ وكتمتُ مالى مذ فقدتُ رُشادى
وكذاك حبِّى يابُثَينةُ قاتلى لكنَّه طهرٌ ونبلٌ بادِ
فأنا الذى عرف الوفاءَ فصانهَ سهراً عليه فقد عدمتُ رُقادى
فمتى أرى وجهاً يُضىءُ بشاشةً فأنالَ قصدى فى الهوى ومرادى

(ثم مستمراً)

ربّاه ماذا بقلبى إنَّنى ثَمِلٌ أُحِسُّ أنَّ التِّقاقد كاد أو قَرُبَا
أشُمُّ ريحَ نسيم طاهرٍ عَبِقٍ واستَشِفُ ضياءٍ مزّق الحُجُبَا
تكادُ روحى تطير اليومَ من فرحٍ كذاك قلبى اشتياقاً نحوَها سُلِبا
كأسُ المحبةِ مُرٌّ فى مذاقته لا يعرفُ الحبَّ الا من له شَرِبا

كثير

دعنى جميلٌ أسيرُ قليلا فى السَّير حظٌّ لنيل الطَّلَبْ
عسايَ أُوَفَّقُ فى رحلتى وأرجعُ مصطحباً من تُحِبْ

جميل

كثيرٌ سِرْ لا عدِمْتُ وفا ك ولا تبطىء السَّيرَ بل لا تَغِبْ

(يسير كثيرٌ بينما تقل بثينة متخفية تمشى على استحياء وقد أتعبها المسير)

جميل

(فى لهفة)

بثينة ! !

بثينة

(صارخة)

جميل ! !

جميل

(متوسلا)

إلىَّ بثينةُ أنْتِ الحيَا ةُ وأنْتِ المرادُ وأنْتِ الامَلْ
تعالى إلىَّ فأنى مشُو قٌ عسى الشوقُ بالقرب منكُ يبَلْ
ركبْتِ الصِّعابَ وفاءً بعه دٍ وبراً بوعدٍ لمنْ لم يَحُلْ
فكيفَ الحياةُ وكيف المُقا م أجيبى فانّ فؤادِى شغُلْ ؟

بثينة

(وتدنو قليلا من جميل)

حياتى حياة البئيس الكئيـ ـيب وعيْشِى عيشُ الحزين الأذَلْ
ولمْ لا وأنتَ بعيدٌ وَنا ءٍ وبُعْدُ الحبيب عذَابُ الأزَلْ
فليتَ الصِّعابَ عُبورُ طر يقٍ وسيرٌ بليلٍ برأسِ الجبَلْ

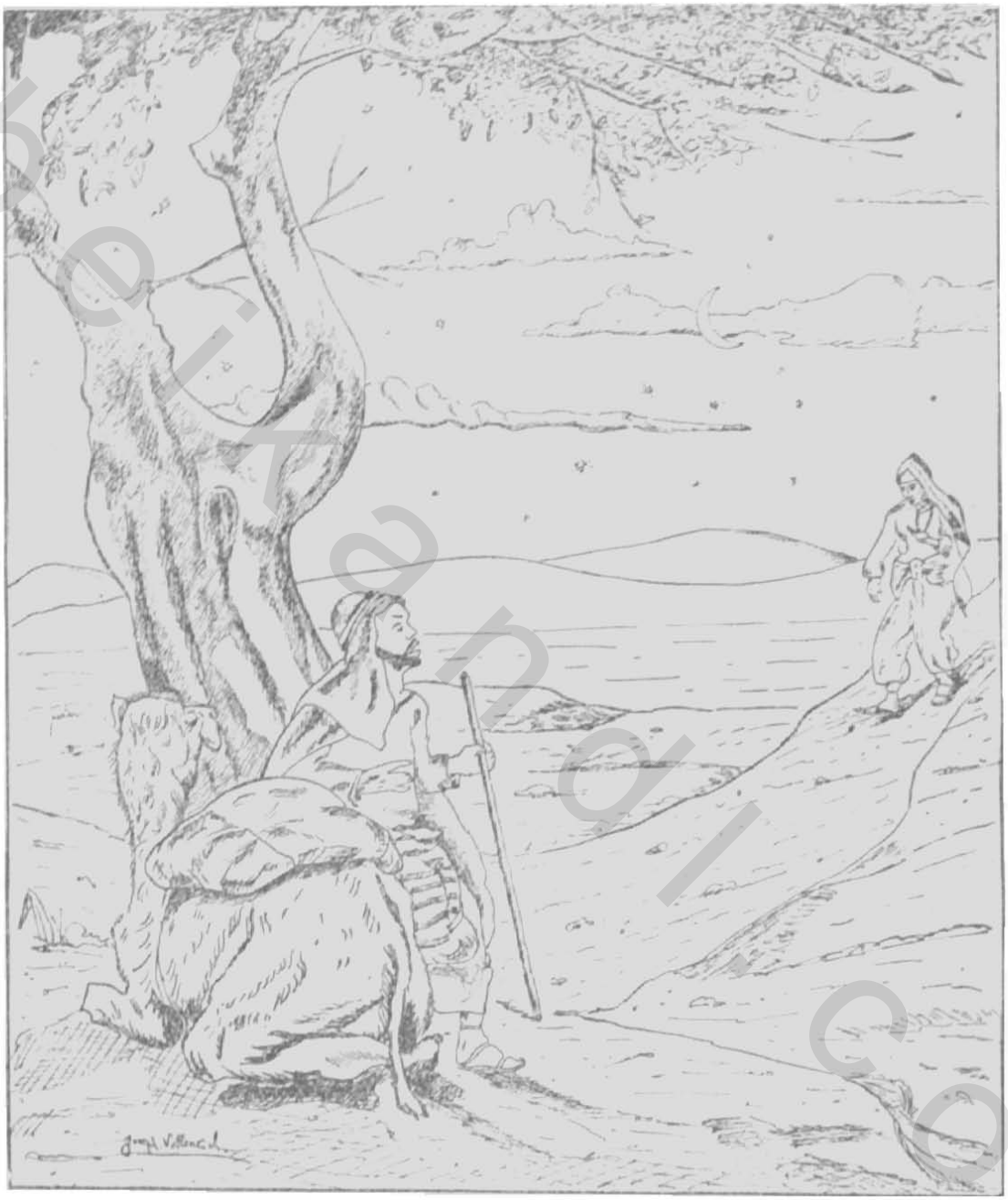

إلىَّ بثينةُ أنتِ الحيا ةُ وأنتِ المرادُ وأنتِ الامَلْ

obeikandl.com

وأنت قريبٌ إذنْ لهنئ ت بُنيلِ المرادِ وكسبِ الأملْ

جميل

لئن كنتِ فى همٍّ وغمٍ وكربةٍ فانَّ فؤادى دائمُ الرَّجفانِ
وهبتُكِ روحى فى الحياةِ ومهجتى
وصرتُ بلا روحٍ وغيرِ جنانِ

بثينة

إذنْ أنتَ لم تنسَ العهودَ ولم تحُلْ
وشأنكَ فى حفظِ العهودِ كشانى ؟

جميل

وكيفَ سُلوّى يا بُثَينةُ عن هوًى
أقامَ بقلبى من قديم زمانِ ؟

بثينه

أتذكرُ أيّامَ الصفاءِ التى مضتْ
بقُربكَ أشهى من بلوغِ أمانى ؟

جميل

فداؤُكِ نفسى لست أنسى حَيَاتَنَا بوادى القُرى فى غبطة وأمان
وأنتِ بقُربى والحياةُ وضيئةٌ وظلُّ شَبَابَيْنَا ظَلِيلٌ دانِ
كطيرٍ طليقٍ يشرحُ الحُبَّ والهوى يُغرِّدُ الحاناً على الأغصانِ

بثينة

فمالى أرانا شَتَّتَ الدهرُ بيننا وبدَّل وصلاً منكَ بالهجرانِ
فصرتُ كثكلى غابَ عنها وحيدُها فأجرى دموعَ العينِ بالهَمَلانِ

(يدخل والد بثينة وأخوها حواش مشتملين معتمدين سيفيهما حينما علما بلقاء بثينة حيث وشت بذلك اليهما بعض الجوارى وقد سمعا آخر ماقاهت به بثينة . ويختبئان وراء نخلة سمعان من ورائها المناجاة ويهمسان بصوت لايسمعه غيرهما)

والد بثينة

سمعتُ بأُذْنَىَّ قولَ ابنَتِى فتعساً لقول يُثيرُ الرِّيَبْ
فواسوأتى بين قومى غداً إذا شاعَ أمرٌ هُما فى العَرَبْ

أخـــوها

أبى لاتَعجَّلْ بسُوء الظنو نِ لعلَّ المخبِّرَ وَاشٍ كَذَبْ

وإن جاء بالامر أهلُ الفسو ق تبيَّنْ ولا يأخذنْكَ العجبْ
وقف نستمعْ لحديثَيْهِمَا ونحنُ بَعيدَيْنِ لا نقْتَرِبْ
فنَعْلَمَ أمرَيْهِمَا هل خَدَا عٌ مريبٌ والاَّ وفاءٌ وحُبْ

(يختبئان)

جميـــل

(مستمراً فى حديث المناجاة الاول)

دعينِيَ من وصفِ البعاد وأقْبِلي وخلِّي حديثَ الصدِّ والهجرانِ
أنيلي فؤادي منكِ وصلاً مُدانياً لأطفيءَ مابي من جوَى النِّيرانِ
فليس علينا ههنَا من رقابَة فلا عَيْنَ تؤذينَا ولا أُذنان

بثنـــة

(وتنفر منه فى أنفة وإباء وعظمة)

تنَحَّ جميلٌ ماعَهِدْتكَ ماجناً ولا عَهْدَ لى بالفسق والخسرانِ
نسيتَ بأنَّ اللهَ يَرقب أمرَنَا ولم تَخْشَ ما يَخْتَطُّهُ الملكانِ
فتباً لقلبٍ لم يرَ الله فوقه ولم يَخْشَ بطْشَ الباري الرحمنِ

ولم يستمع صوت الضمير ينادد نجنب سبيل الغي والخسران
ففي أي عصر أسرفت بنت يعرب تسوم عروضاً بالمتاع الفاني ؟
لقد وصفوها بالمجون وقاحة وجاءوا بقول الزور والبهتان
ألم تر قوم الافك كيف تجمعوا يعيبون في عرض رفيع الشان
فرد إله العرش أقوال أفكهم وبرأها بالوحي والقرآن
فلو ترقى يوماً للسماء بسلم وأضحى قريباً فالبعيد الثاني
سأسمو بطهري في الورى ونزاهتي واعلو مع العقبان بالطيران

جميل

(في اعجاب)

بروحي هذا الطهر والنبل والتقى أقمت عليه واضح البرهان
فوالله لم أبغ الفسوق ولا له على قلب أهل الطهر من سلطان
ولم أبغ الا أن يلذ لمسمعي دفاعك عن حق وطهر جنان
فليس فخار البنت غير عفافها وعلم يجلي الحق بالبرهان
ومنك عشقت الفضل والعقل والحجى
ولم أعشق الجسم الحقير الفاني

وإنى لأرضى منكِ بالنظرةِ التى لها كلُّ نُبلٍ فى الخصالِ معانِ
فلوكان حكمُ الحقِّ للناسِ شرعةً لخلّوا سبيلَينا بكلِّ مكانِ

والدها

(بعد سماع النجوى)

سنُخلى سبيلَ الطهرِ بعدَ وضوحِهِ

أخوها

وجادَتْ عليه رحمةُ الدّيانِ

(ويخرجان)

(يسمع أذان الفجر من مصلى بعرض الطريق)

الله أكبر الله أكبر الخ

جميل

أسمعتِ ماهذا النداءُ بُثينةُ ؟ هذا نداءٌ مؤذنٌ بفراقِ
هو للصلاةِ وللعبادةِ والنُّهى يدعُو كرامَ الخلقِ للخلّاقِ
قد أدبرَ الليلُ الهنىءُ بوصلهِ وبدا ضياءُ الصبح بالاشراقِ
فلأرجعنّ الى الديارِ مفاخراً بالطُّهر فى دينى وفى أخلاقى

فهناكَ أُمِّي يابثينةُ مالهَا غيرُ الدموعِ تُسيلُها لفِراقي
كم ليلةٍ باتَتْ تُؤانسُ وحدتي وتَسيلُ من عطفٍ ومن اشفاقِ
الأُمُّ تشفقُ والبنونَ يقودهمْ شيطانُهمْ لامأتة الاخلاقِ
جَحدوا حقوقاً للأُمومةِ ويحَهمْ من غضبةٍ للواحدِ الخلاَّقِ
ولقدقسا من كنتُ أرجوَ عطفَهمْ وتجمَّعوا لعقوبتي وشقاقي
هدروا دمي وتتبَّعُوني حيثُما سِرتُ استباحوا حُرمتي ورفاقي
وبيطنِ كفِّي صارمي ومُهنَّدي لولاكِ ماوجدوا لَهمْ من واقِ
ماأصعبَ النأيَ المشتِّتَ والقِلىَ ممن هواهُ في الجوانحِ باقِ
فلأنتِ قِبلةُ ناظري ولأنتِ من أجدُ الصِّعابَ لأجلها وألاقي
هل نظرةٌ قبلَ الفِراقِ وعَطفةٌ هل بَعدَ بُعدكِ يابُثَيْنَ تَلاقِ؟!.

(يبكي جميل بتأثر)

بثينة

(باكية)

صَعبٌ عليَّ فِراقُ من أحببتُهُ ربَّاه حلَّ وِثاقَهُ ووثاقي

فمع السلامة يا جميلُ وإنني أُتبعك إشفاقي مَعَ الأشواقِ
قد زاد همّي بالفراق ويومِهِ وجرت دموعُ العينِ بالآماقِ

(يتعانقان في حالة بكاء وإشفاق وتتبعه بثينة بنظرها حتى يغيب)

بثينة

رباه : سار جميلٌ لستُ أنساهُ هذا فؤادي لم تبرحهُ ذكراه
وفى بعهدٍ ولم يغدُرْ كما غدَروا ولم يفهْ بقبيحٍ مثلَما فَاهوا
وعفَ لم يرتكب ذنباً يدنّسهُ والحبُّ يسمو إذا ما الطُّهرُ واقاهُ
أحسُّ بعدَ جميلٍ لوعةً وأسىً لا عهد لى بهما فى وقتِ لُقْيَاه
وقد ضعفْتُ فلم أستطعْ مجالدةً وكلُّ جارحةٍ فى الجسم تهواه
إذا جلسنا مع الاقوام لم يجدوا هوى علينا ولكنْ يعلمُ اللهُ
وإن خلونا شرَحنا حبَّ عاطفةٍ تسمو بها النفسُ للعلياوترعاهُ
للحبِّ أجنحةٌ ترقى الى درَجٍ وترفعُ المرء عن أوهامِ دُنياه
وفى السماء مقاماتُ الأُولى عشِقوا فيخلدُون ويفنى المال والجاه

(ستار)

الفصل الثانى

المنظر الاول

(أمام خيام والد جميل يجلس وقاد مسعود ابن عم جميل —)
(وفى جهة ثانية عنهما على قوز رمل يجلس جميل ووراءه صديقه)
(وراويه كثير . وجميل يتنسم ريح الشمال من حى بثينة ويناجيها)

جميل

(أيا ريحَ الشَّمال أما ترَيْنى ... أهيمُ وأنَّنى بادى النُّحول ؟)
(هبى لى نَسمةً من ريح بَثْنٍ ... وُمنِّى بالهبوب على جميل)
(وقولى يا بثينةُ حسبُ نفسى ... قليلُك أو أقلَّ منَ القليل)
فقد زاد الهُيامُ وزاد وجدى ... وقَلَّ تَصبُّرى وَبداذُهولى
إذا ضَنَّ الزَّمان بوصل بَثْنٍ ... فهلاَّ نَسمةٌ تشفى غليلى ؟
سقَيتُ الأرضَ من دمع غزير ... على هذى الجبالِ وذى التُّلول
وجُدْتُ بما يضِنُّ به كرامٌ ... فلستُ بجامد أو بالبخيل

اذا ريحُ الشَّمالِ علىَّ هبَّتْ تلمَّستُ السبيلَ الى الوُصولِ
فان حالوا بنهيٍ أو وعيدٍ فما منعوا بُكائِىَ أو عويلى
فحبُّكِ يا بُثينَ حياةُ نفسى وليس الى سلُوّى من سبيل
عرَفتُ الريحَ من عرْفٍ زكى أقلَّتْهُ الرِّياحُ الى جميل
يَضِلُّ رِكابُ من يبغى حُطاماً ولستُ أَضِلُّ إذْ قلبى دليلى
ومافى الأرض اشقى من مُحبٍ يُقاسى لوعةَ الهجر الطويل
وليس مُناى غيرُ لقاءِ بَثنٍ بِحَزْنٍ أوِ جبال أو سُهولِ

مسعود

رُوَيْدا

روقا

نَعَمْ

مسعود

إنِّى مشفقٌ أخافُ عليهِ حلولَ التلفْ

لقد فاض دمعٌ له ساكبٌ وزاد بها حبُّهُ والكَلَفْ
وقد ملكتْ بَثْنةٌ قلبَهُ وإنَّ جميلاً بها قد شُغِفْ

روقا

تمهَّلْ قليـــلا فانَّ الذى تراهُ أَحبَّ وضَحّى وعَفَّ
وقد تَرَك الخلقَ فى لهوِهمْ وحَلَّق نحوَ العُلا والشَّرَفْ
فليس يخافُ صُروفَ الحيا ةِ ومن غير هجرِها لم يَخَفْ
فلو ظلَّ شهراً بهـذا المكا نِ يُناجى الحبيبةَ لم ينصرِفْ
ولو قُلتَ عَمَّنْ يُحبُّ حدي ثاً لقام اليـك سريعاً وخَفّ

(يدخل والد جميل وخلفه بعض الفتيات)

والد جميل

(الى روقا ومسعود)

أين جميلٌ بَنىَّ فانّى أصابَنىَ الضُرُّ من أجلهِ

مسعود

(مشيرا الى جميل)

تراه هنا ياأبى جالساً تَسيلُ الدُّموعُ على خدِّهِ
على قَوْزِ (١) رملٍ يُناجى التى تُسيطرُ دَوْماً على قلبهِ

والد جميل

علىَّ به سرْ اليـــه سريـ ـعاً تقدَّمْ اليه وقُمْ نادِهِ

(يتقدم مسعود من جميل ويخاطب كثيراً)

مسعود

كثيِّرْ : يُريد جميلاً أبو هُ وقدجئتُك الآن من عندِهِ

كثير

وأين أبوه ؟

مسعود

أمام الخيـــا م يُطيلُ البكاءَ على بَعْلِهِ

(يتقدم كثير من جميل وينادبه)

كثير

جميل !

(١) الكثيب وجمله أقواز وقيزان

جميل

نعم يا كثـــيِّر

كثير

تعالَ فهذا رسولٌ أتَى

جميل

ومن اينَ جاء وما يبتغي ؟

كثير

يُريدك هذا أبوك هُنا

(ويشير الى الخيام)

جميل

ابى ما يريد ؟ وما يبتغى ؟ وأىُّ الشئونِ دَعَتْ يا تُرى ؟

مسعود

أمامَ الخيامِ ترى ياجميـ لُ أباك يُطيلُ عليك البُكا
يريدُك قد جدَّ أمرٌ مهـ مٌّ يخص بثينةَ مِنْ ذَا الفلا

جميل

(ويلتفت مهتما)

بثينةُ ! ماجدَّ من أمرها ؟ وهل من بثينةَ يأتى نَبا ؟
وبين الدِّيار فضاءٌ عريـ ضٌ وسيرٌ حثيثٌ طويلُ المدى؟
ولـكنَّه الابُ للخير يَسعى وواجبُنَا أن نُطيعَ الأبا
فقُمْ يا كثيِّرْ : قُمْ عَلَّهُ يُزيلُ الهمومَ ويَشفى الجوى

(ينهضان ومعهما مسعود الى الخيام حيث والد جميل)

جميل

سلامٌ أبى

والده

مرحباً ياجميـــ لُ رعاك بَنِيَّ إلهُ الورى
لقد زادَ وجداً عليـك أبو كَ وأمُّك ثـكلى تُطيلُ البُـكا
وحتى متى أنت تَبكى الطلو لَ وتَحكى أحاديثَ من قد نأى؟

جميل

(وهو يبكى)

حتى تعُودَ إلىَّ بثيـــنةُ تَشفِ جوى غُلَّتِي باللقَا

والده

أراكَ على ذكرِها باقياَ

جميل

وفى أىِّ وقتٍ عَدِمْتُ الوَفا ؟

والده

عهِدتُكشهماً بُنَىَّ ولكن سيُودِى بنفسِك هذا الهوى
وقدطافشعرُك أرضَ الحجا زِ وعمَّ المدائنَ بل والقُرى
تُشبِّبُ فيــــه بهـا ياجميـ ـلُ وقدشاع أمرُ كما فى الورى
وأخشى إذا نحن سرنا لنخْـــطُبَ هذى الفتاة يحولُ الهوى
ومن عادة العرُب فى ذا الزما ن يَرُدُّون خِطبةَ صَبٍّ أتَى
ومن أىِّ بيت أردْتَ الزَّوا جَ سمعْتَ النداء به مرحبا
يَوَدُّ الجميعُ التقرُّبَ منـ ـكَ لأنَّ أباك عظيمُ الحِمَى
وسوفَ ترى ههنا أنجُماً يُضئْنَ الظلامَ بنور السَّنَا
وفيهنَّ أجملُ ممن تحـ ـبُّ وأغنى وأحسنُ فانظرْ ترى

(ويشير الى الحسان وراءه فاذا رآهن جميل بكى وأعرض عنهن وأنشد)

جميل

(حلفتُ لكيما تعلميني صادقاً ... وللصدقُ خيرٌ في الأمور وأنجحُ)
(لتكليمُ يومٍ واحدٍ من بثينة ... ورؤيتُها عندي ألذُّ وأملحُ)
(من الدهر أو أخلو بكنَّ وإنما ... أعالجُ قلباطامحاً حيث يطمحُ)
وقد زينوا جمعاً يظنُّون أنني ... سأشقى بلقياهنَّ يوماً وأفرح
فياليتني ميتٌ وبثنةُ جانبي ... تقصُّ على قبري هواها وتشرح
وليس بخافٍ عن سماعي كلامُها ... أراها بعين القلب فرحى تمازح
ولو زيَّنوا كلَّ النساء لناظري ... فما في سوى بثن لقلبيَ مطمحُ

(تحرج الفتيات)

والده

الهي لقد نفدت حياتي ... وقلَّ احتمالي لهذا الألمْ
جميل: بُنيَّ لقد رُعتني ... فداؤكَ داءٌ جليلُ العظمْ
ولم أدَّخر في دوائك وُسْـ ... ـعاً فخيرُ داؤكَ طبُّ الأممْ
ولا المال عندي ذو قيمة ... بجانب بُرئكَ من ذا السقمْ
فهل ثمَّ شيءٌ يُرى نافعاً ... أشيروا بنيَّ به فيتمْ

رونا

أرانى عدواً لكل طبيـ ـب يداوى المريض بهذا الدجل
ويزعم علم الغيوب افترا ـءً على الله : تعساً لهذا الرجل
ويخبر كذباً بطول البقا ـء وقرب الشفاء ومد الأجل
فتعساً له ولمن قد أتا ـه يصدق ما عنده من حيل
وأى الفوائد قد حققت وقد خاب من ترتجى من أمل ؟
وهذا جميل ابن عمى صري ـع حب بثينة منذ الأزل
فلم يشفه طب من نجموا ألا بئس تنجيمهم والدجل

والده

وماذا تراه يفيد جميلا تكلم ولا تخف : قل ما العمل ؟!

رونا

أرى أن نسير به محرم ين تحث الركاب لأم القرى
يطوف ببيت له حرمة على الله نرجو هناك الشفا
فمن دخل البيت يزجيه خوف لصار به فى الورى آمنا

ومن مسّهُ الضُّرُّ يوماً وطا ف طواف القدوم لزال العنا

مسعود

رأيتُ الصواب بقولك رُوقا فيا نِعمَ ما قد ذكرتَ لنا

كثير

اسمعوا رأيي فانّي لخبيرٌ بالدواء
ليس للحُبِّ دواءٌ غيرُ تحقيقِ اللقاء
هجرُ من تهواهُ داءٌ واللقاءُ هو الشِّفاء
والمصائبُ ليسَ تُصمِي غيرَ قلبِ الأوفياء
فاخطبوها لجميلٍ يستَرِحْ من ذا العناء
ذاك رأيي وهو أجدَى مايقالُ عن الدواء

والد جميل

سآخذُ بالشورى وأمضي لعلَّني أُصيبُ نجاحاً ربَّ هيِّءْ لنا الخيرا

(ومقبلا على جميل يطيب نفسه)

سأمضي جميلٌ إلى حيِّها لخِطبتِها وسأُغلي الثَّمنْ
وأعملُ جهدي لتحظَى بها فَطِبْ خاطراً وأقلَّ الشجَنْ

جميل

(يا ليلى ومتوسلا لأبيه)

أبى الفُ شكرٍ وألفُ ثنا ءٍ فكم لك يا والدى من مِنَنْ
فلا زلتَ تدفعُ عنى البلا ءَ وتطردُ عنى عوادى الزمن
ويا بثن عَلىَّ آفوزُ بقُر بٍ فنحيا معاً تحت ظلِّ الوطنْ

(ستـــار)

obeikandl.com

المنظر الثانى

(بجانب خيام والد بثينة يرى أبوها ومعه عبد الله بن قطنة)
(وعمير ابن رمل وكلاهما من بنى الاحب من بثينه ومن)
(رهطها الادنين)

والد بثينة

(مخاطبا صاحبيه)

ياصاحبَىَّ أشيرانى برأيكما ... فالموقفُ اليومَ قد يشتدُّ فى حرَجا
عسى نُوَفَّقُ فى قَول وفى عمل ... ويخلقُ الله بعد الشدَّةِ الفرجا

عبد الله

ماذا أراهُ قد أهمَّك سيِّدى ... ماذا جرى يازينةَ الأحبابِ ؟

أبوها

أتانى نبيهٌ خاطباً لبُثينة ... فلم أدرِ ماذا قد يكونُ جوابى
أأرفضُ أم أرضى؟ فتلك مصيبةٌ ... لقد طار لُبِّى بل فقدتُ صوابى
فبَثْنَةُ لا تَرْضَى بغير جميلها ... وذلك عارى فى الحمى ومُصابى
فقد طال تشبيباً ببنتى: عَمىً له ... وعادةُ قومى رَدُّهُ عن بابى

عبد الله

عَرَفتُ نبيهاً ولـــكنَّهُ شـديدٌ وقاسٍ بذاك اشتهرَ
وما كان ردُّك ؟

والدها

أرجأتُهُ إلى الآنَ حتى أرى وأُتشر

عبد الله

وماذا ترى أنت ؟

والدها

إنّى أرى زواجَ نبيهٍ أخفَّ ضَرَرْ

عبد الله

(مستنكراً)

وكيف تُزوِّجُ ظبياً لوحـ شٍ تَطاوَلَ نابٌ لهوالظُّفُرْ ؟
لقد أقِفُ اليومَ ضداً لرأ يكَ أشكو إلى الله ظُلْمَ البَشَرْ
فبنْتُك ماذا جَنتْ فى الهوى وسيرتُها من أعفَّ السِّيَرْ ؟
فهل شُرتَ بنتَك ما رأيُها وهل علمتْ بَثْنَةٌ بالخبر ؟

أبوها

وماذا يهـــمُ بُثينةَ منـ ـه وإنّى أدرى بهذا الخبر ؟

عبد الله

هل البتُ عندكمُ سلعةٌ تُباع وتُشرى لعبد وحُر ؟
دأبتم على وأدِها حقبةً فلم يُحيها غيرُ هذى السُوَرْ
من الله جاءبها الرُوحُ قدْ ماَ وألقى على قلب خير البشر
فنبَّهَ من ذكرها خاملاً وهذى لعَمْرِى احدى الكِبرْ
فشاورْ فتاتَك فى أمـــرها وكُنْ عادلاً ياأخى لاتجُرْ
ولاتحتقرْ أمرَ هذا الزَّوا جِ فامّا نعيمٌ وإما سَقَرْ

عمر

(مخاطبا عبد الله)

صديقىَ مهـــلاً فماذا ترى يدُوقولُك هذاعظيمُ الخطرْ
تريدُ تُزوِّجُها للذى أطال التَشبُّبَ حتى اشتهر ؟
وتكسُو عاراً بذا قومَها لقد جئتَ إدّاً فما يُغتفرْ

والدها

(ويرى نبيها قادما من بعد)

فهذا نبيـــهٌ أراه أتَى وسوف أوافقه لاضررْ

عبد الله

اذَنْ فأذنا لِيَ فى أن أسيـ ـرَ إذنْ فاسمحا لِيَ لا أنتَظِرْ

لقد قَتَلُوا بَثْنةً طفلةً فيارَبِّ لُطْفاً بنا فى القدر

(يخرج ويقدم نبيه)

بثنـــة

سلامٌ عظيمَ الحِمَى

والدها

مرحباً وأهلاً وسهلاً بضيف حَضَرْ

(وينادى بثينة)

بثينةُ بنتى

بثنـــة

(من وراء الخيام)

نَعَمْ يا أبى

أبوها

تعالى اقْرُبِي

بثينـــة

(وقد أحست بوجود غريب)

والدى ما الخبر ؟

(وتظهر من وراء الخيام)

والدها

أتاكِ نبيهٌ ونعم القـــر ينُ فحَيِّ اللبيبَ سليلَ الأُسَرْ
لقد زدتِ قدراً بهذا الزوا جِ فأنتِ شمسٌ وهذا القمرْ

بثينـــة

(بذهول وبكاء)

خاب الرَّجاء وقد تعاظَمَ دائى وقُتِلْتُ ظُلماً من يد الآباءِ
ماذا جنيتُ من الذُّنوبِ لتَسفكوا
دمَ حُرَّة تحيـــا بكُلِّ وفاء ؟
مَنْ ياجميلُ لك الغداةَ مبلغٌ أنّى أموت لِعفَّتى ووفائى
هذى الحياةُ تسيءُ أصحابَ الوَفا وتُجلُّ كلَّ مخادعٍ ومُرائِ
ويموتُ فيها كلُّ حُرٍّ نابه أحيا الفضائلَ ميتةَ الغُرَباء ! !

كيف الحياة مع الذى لا أرتضى ... أم كيف أصبرُ عن حبيب ناءِ ؟
هذا تحكمُ والدٍ فى بنتهِ ... ما أظلمَ الآباءَ للأبناءِ
عُودوا لقول الله فى قرآنهِ ... تجدوه يحمى حوزةَ الضعفاءِ
وتدبَّروا قولَ الرسولِ فانَّهُ ... يوصى باشفاقٍ على الأبناء
قد كان ظُلمًا قبلَ بعثةِ أحمدٍ ... حتى أتى لحمايةِ البُؤساءِ
والآن قد وضحَ السَّبيلُ لسالكٍ ... يقفُوا مآثرَ سادةٍ كُرماءِ
لَوْ عادَ للاسلام قومى مابغَوْا ... ولَأصبحُوا فى غبطةٍ وهناء
فاطرحْ بعاداتِ الجهالة جانباً ... وارجعْ أبى لشريعةِ الحكماء
يدُكَ الرحيمةُ ياأبى ما بالُها ... تُشقِى بظُلمٍ أضعفَ الأبناء
لولم أكُنْ بنتاً لكان تصرُّفى ... بيدى : فما بالى تعاظمَ دائى؟
من راحمى من بعد قسوةِ والدى ... من أرتجيه لشدَّتى وعنائى؟
إنَّ الحجارةَ قد يَلينُ صليدُها ... حتى تُحاكِىَ رقَّةَ الآباء
والقلبُ قد يقسو فليسَ بنافعٍ ... من بعدِ قسوَتهِ حجا النُّصحاء
يارحمةَ الرَّحمنِ أنتِ أرَقُّ منْ ... كلِّ القلوبِ بذلَّتى وشقائى
والموتُ خيرٌ من حياةٍ نيلة ... عذراءَ تستجدِى يدَ البُخلاءِ

(تقع بثينة فى شبه اغماء)

والدها

ربابُ تعالَىْ

رباب

نعمْ سيِّدى

والد بثينه

هلمّى

رباب

إلهىَ ماذا جرَى ؟

(تظهر رباب وحينما ترى سيدتها ملقاة)

(تدهش وتجثو على سيدتها تتحسسها وتصيح)

رباب

جُعلْتُ فداءَكِ مِمَّا أصا بَكِ سيِّدتى جلَّ ما قد أرى

فماذا دهاكِ وماذا اعترا كِ ودمعُكِ فوق الخُدودِ جرى؟

(تبكى رباب سيدتها)

والد بثينة

صه يارابُ ! فَدِى جرأةً وسُخريةً من كرام العَرَبْ

فلستُ بسيِّدِ هذا الحِمى إذا زُوِّجتْ بَثْنةُ كلَّ مَحِبْ

(ويخاطب نفسه فى غضب وحدة)

ماذا يقالُ إذا فضحتُ عشيرتى وسَخِرتُ من قومى ومن عاداتى؟
فيُباحُ عِرضى عند كلِّ قبيلة ويَحِلُّ شتمى من وراءِ بناتى
ويقالُ شيخٌ ضلَّ بعد مشيبه وغوَى: وجلَّتْ عندهم هفواتى
لا: لا أُزوِّجُ ذى الفتاةَ لعاشق عرف الجميعُ غرامَهُ بفتاتى!!
حِرْصاً وصوْناً لابنتى ولعِرضها من قَوْل زور أو حديث وشاةِ
ولئن بدا للناس أنِّى ظالم فالقيدُ فى عُنقى من العادات
فاذهبْ نبيه قد قبلتُ زواجَها بك أنت حرٌّ صادقُ الرَّغباتِ

نبيه

سأُعلنُ بين القبائلِ أنى خطبتُ ووُفِّقتُ فى خِطبتى
وفى الغدِ نُحضر شيخَ القضا ةِ وتُصبح تلك المها زوجتى

(ويشير الى بثينة)

عمير

بخ ياصـــديقَ فاهنأْ بها ودُمْ للسُّرور وللغـــبطةِ

(يخرج نبيه و يسير معه والد بثينه مودعا وخلفهما عمير)

رباب

الهى سمعتُ حديثَ الطُّغا ... ةِ فياللنَّداَلةِ والجرُأةِ
قد اعتسفَ القومُ فى حكمهمْ ... وحادُوا عن الدِّينِ والملَّةِ
فلم يُهملِ الدِّينُ أمرَ الفتا ... ة ولا تركَ الخلقَ فى غفلةِ
وصانَ حقُوقَ جميعِ الطوا ... ئفِ قدْماً وجادَهمْ بالَّتِى
فما بالهُمْ حمَّلُوكِ الهمو ... مَ وفى غيرِ ذَنبٍ ولاَ زلَّةِ
وانّى لكِ اليومَ عبدٌ ولكنْ ... سأبذُلُ فيكِ مَدَى همَّتى
وأدفعُ عنكِ صُروفَ الحيا ... ةِ فهل تعلمين مَدَى كُربَتى ؟
فكم من بَغِىٍ حباهاالزَّما ... نُ وأنتِ تموتينَ بالعِفَّةِ
بروحى شبابُكِ هذا النضيـ ... ـرُ يموتُ ويذبُلُ بالحسرةِ
توالتْ عليكِ همومُ الحيا ... ةِ وَوَدُّوا زواجكِ بالقوَّةِ
نهارُكِ همٌّ وليلكِ سُهـ ... ـدٌ ودَمْعُكِ يجرى على الوَجنةِ
فيارَبِّ خلِّص جميعَ الضِّعَا ... فِ من الظُّلمِ والعَسفِ والقَسْوةِ

وهيِّئي لسيدتي رُشدَها فأنتِ قريبٌ أجِبْ دَعوتي

(يدخل والد بثينة ومعه عمير)

والدها

(مخاطبا رباب)

هل زال ما بِفتاتي اليوم من أَلَمٍ

وهل أفاقَتْ ـ رباب ـ من غَواشيها ؟

رباب

لاسيدي لم تزَلْ تبكي سعادَتَها الهمُّ يقتُلُها والعَطْفُ يُحييها

جسمٌ نحيلٌ ودمعٌ ساكبٌ ويدٌ ترعى العفافَ وتَخشى بَطشَ باريها

سمَتْ بأخلاق طُهْرٍ زانها شرفٌ يحمي الحرائرَ والاسلامُ مُوحيها

ومن يكن بِعُرَى الاسلام معتصما فاقَ البريَّةَ قاصيها ودَانيها

فللكمال نِهاياتٌ وأكملُها أحكامُ عدل كتابُ الله يُمليها

فهل أباحَ لكم قرآنُ ربِّكُمُ أن تحرِموا حرَّةً زوجاً يُواليها؟

وتجبُرُوها على زوج تُزَفُّ لهُ كأنها سِلعةٌ تُزجَى لشاريها ؟

لا تحقروا قلبَ أنثى تقتلون به اسمى العواطفِ فى نُبلٍ يُزكّيها
وزوّجوا البنتَ من ترضى إذا كرُمَتْ منه الطّباعُ وكان الدّينُ حاميها

والد بثينة

لا يارَباب فأنت اليومَ واهمةٌ فقد قبلتُ نبيهاً لا لأُشقيها
وعادةُ القوم رفضٌ للحبّ إذا قال القوافِىَ تشبيباً وتنويهاَ
ولا أُخالفُ للأقوام عادَتَهُمْ مهما يكونُ فلستُ اليومَ ناسيها
وقد رضيتُ لبنتى نابهاً فَطِناً يَحْلُو المعرّةَ إن هبّتْ سوافيها
وسوفَ تغدو به فى خير عافيةٍ بل سوف تسلُو محباً كادُ يشقيها

(يقترب والد جميل وقد وصل الى حى بثينة ومعه رفيقاه)

والد جميل

(مخاطبا زميليه)

لقد وصلنا إلى أحيائها فعسى يُحقّقُ اللهُ آمالاً نُرَجّيها

(ومشيرا الى خيام والد بثينة)

هذاكَ والدُها عند الخِيام يُرى ونظرةُ الجدّ فى عَيْنَيْهِ يُبديها

(ومقبلا على والد بثينة)

تحيةَ سيِّدى زهراءُ عاطرةً الشوقُ مبعثُها والقلبُ موحيها

(والد بثينة)

أهلا وسهلا بشيخ العُرْب قاطبةً تحيَّتى لكرام القوم أُهديها

(ويخاطب زميليه)

شرّفتمُ دارَنا فالغيثُ أمطرَنا والدارُ حقَّ لها أن تثنَى تيها

(والرباب)

رباب هيَّا أعدِّى للكرام قِرَى

والد جميل

عُذراً فحاجتُنا أولى سنُبديها

(يلتفت والد جميل إلى بثينة مندهشاً بينما يجلس)

(صاحباه مع والد بثينة و يهمسون بخفوت)

رَبّاه ماذا أرى ؟ قد جلَّ فى نظرى

والد بثينة

هذى بُثَينةُ فالأسقامُ تُشقيها

والد جميل

(وهو مقبل على بثينة)

لا بأسَ يا بنتُ هـذى الحالُ تزْعجُنى
عندى لكِ اليومَ بُشرى جئتُ أُهديها
جميلُ ما انفكَّ فى همٍّ وفى حزَنٍ حتى تكونى له زوجاً فقوليها

(تفيق بثينة وتنهض قائمة)

بثينة

من أنت يا سيدى؟ أهلا بمَقْدمكم أبوه أنت؟ أم الاحلام تُمليها ؟
كيف الدِّيارُ؟ وكيف الحىُّ يا أبتى هل نبأةٌ عن جميل منك ندريها؟

والد جميل

جميلُ زاد به وجدٌ وبرَّحهُ وحالهُ قد تروع اليومَ رائيها
لو كنتِ أبصرتِ دمعاً فاض من مُقَلٍ
أصابها السُّهدُ والاسقام تُشقيها
الهمُّ يَقتلُهُ ، والشوق يُقلقُهُ وذكرُكِ اليومَ أورادٌ يؤدِّيها
فان ذُكرتِ صحا من طول غفوَتهِ وعلَّل النفس باللقيا يمنِّيها

يُسائلُ الريحَ هل من حيِّكمْ نبأ ؟
وحالهَ قد سرى فى الأرض ساريها
طرحتُ بين يديكِ الآن حالتَهُ
إن شئتِ أصلحتِها أو شئتِ تَشقيها
فان قبلتِ فهذا جُلُّ غايتنا
وان رفضتِ نعىَ الآمالَ ناعيها
ففى قبولِكِ مَنجاةٌ ومَرحمةٌ وما نؤمِّلُ الا أن تقوليها
اللهُ حرَّم ظلمَ النَّاسِ بعضَهُمُ لاتقتُلى فيه آمالاً نُرَجِّيها

بثينة

(باكية غاضبه)

أنا التى قتلوها جئتَ تسألُنى أمنيَّةً لجميلٍ كنتُ أرجوها؟
أنا التى سَلبوا منها مشيئتَها فى غيرِ حقٍ ولادينٍ يُزَكِّيها!!
أنا التى أثقلوا بالظلم كاهلَها! أنا البضاعةُ والسفَّاكُ شاريها!
أناالتى زوجونى غيرَ راضيةٍ وحَمَّلونِىَ أثقالاً أُعانيها!

أنا القتيلةُ من عادات أقدمهم تبًّتْ! فقد هذَّب الاسلامُ جافيها
ماذا يَضرُّ عفافي من مزاعمهم مادمتُ مُسلمةً: والدينُ يَحميها
أحببتُ لكنَّ حبِّي للعُلا مثلٌ وصنتُ نفسي عن الاسفافِ يُغويها
فان تغنَّتْ بغير الطُّهر غانيةٌ صغتُ الطهارةَ أبياتاً أُغنيها
بلِّغْ جميلاً اذا مارُحتَ انهمُ باعوا الفتاة ببخس ليس يجزيها
وقل له إن نأى جسمٌ وجارحةٌ فالقرب بالروح: والاخلاصُ يُدنيها

والد جميل

الهى حالٌ تُذيب القلو بَ وتبعثُ في النفس معنى الألمْ
وذنبٌ جناه أبٌ ظالمٌ على غير باغٍ ولا مُجترِمْ
أقام الغرام بقلب جميـ ـل وأنتِ هنا في هموم وغم
فياللكِ من حرَّةٍ في الهوى عليها الزمان بغى واجترم
فمن كان يستمرئُ الظلمَ حا وأفسوف يَعَضُّ بنانَ النَّدم
أبوكِ صديقي: ولكنَّـهُ رماكِ بسهم سَليط أصم
ولم يَرْعَ فيكِ غراماً يثو ر، وَهماً يجور، ودمعاً يَنِمّ

فأنتِ لهذا فقدتِ الهنا ءَ وهذا جميلٌ جوَ لمْ ينَمْ
سأمضى بنجلى الى مكة يزور المقامَ ويَغشى الحرَم
عساه يثوبُ إلى رُشـــدِهِ ونرجوا هناك شفاءَ السقَم
وإنّى عليكِ أسيف ولكن كذلك كان وخطَّ القلم

(ومسائلا والدها فى ناحية قصية من المسرح)

لمْ ياصـــديقى أشقيتَ الفتاةَ : ولَمْ
نَعلم عليها سوى الأخلاقِ والأدبِ ؟

والدها

قد كان يُفرحُ قلبى أن أزوِّجها ممن تُحبُّ: ولكن عادةُ العَرَبِ
وخِفتُ أن يقدَحَ الاقوامُ فى شرفى
ويرمُقونى بعين المقْت والعجب
فما رددتُ نبيهاً دون بُغيته وقد أتانى يَمدُّ الكفَّ للطلب

والد جميل

وهل تراكَ مُصيباً إذ تُزَوِّجها من لا يُجانسُها فى العلم والحسب؟
فى الجاهلية كانت عادة لهمُ وكان تقديسُها فى سالف الحقب

لم تُشقِها وحدَها لكن جنيْتَ على
نجلى وبنتك ، قد أخطأتَ لم تُصبِ
وفى بثينةَ طُهرٌ ماله مَثلٌ بل اطلاعٌ على الأديانِ والكُتُب
قدصاغها الله من نُبلٍ وعاطفة وأوقد الشوقُ فيها جذوة اللهب
وساقها الحظُّ للاسقام تقتلُها واهاً لها من زمان جاء بالعجب
دُم سيِّدى فى هناء

والدها

دُمتَ فى نِعَمٍ وجادك الغَيث سيَّالاً على القُضُبِ

والد جميل

(مقبلا على بثينه)

ويابثينةُ فى حفظ الاله عسى بعد الشقاء تنالى غايةَ الأرب

بثينة

بَلِّغ جميلاً تحياتى فواشفَقى عليه مما يقاسى اليومَ من تعب

والد جميل

حمالكِ ربُّكِ يابنتى فذى شِيَم تنمُّ عن نسبة فى الدين والحسبِ

(يخرج وفى أثره صاحباه و يتبعهم والد بثينه)

بثينه

ربّاه إنّى على الأهوال قادمةٌ كيف احتمالى لهذا الشّقم والألم
حُرمتُ ممن هوى قلبى فوا أسفى وضاقت الأرضُ فى عينى فوا ندمى
حملتُ عبئاً تنوء الرّاسيات به من زلّة الأب لا من زلّة القدم
لم أجن ذنباً. ولم أفسق بجارحةٍ ولم أحبّ خؤوناً ناقض الذّمم
بل سيداً حسُنت فى الناس سيرتُه سما العفاف به كالمفرد العلم
ماللزّمان وللأطهار يصرعهم يرميهم من صنوف الغدر بالحُمم
خلّ الطهارة واثأر للعفاف اذا
راج الفسوقُ وضاعت خلّةُ الشّمَمِ
فقد طغى القومُ والرّحمنُ يُمهلهُمْ
وأسرفوا فى ارتكاب الجرْمِ واللّمَمِ
رميتَ بالغدر من يرعى العهودَ إذا
خان الوفىُّ عُهودَ الحبِّ والقَسَمِ

أذبلتَ عُودَ شـــبابي في نضارته
والهمُّ يقتادُني للموتِ والعدم
ويحي ! وويح جميـــلٍ ! ماجنايتُنا
غيرُ العفاف وغيرُ الطُّهر من قِدم
فان بعدْنا فحفظ العهد يجمعنا
على الوفاء وبعد الموتِ في الرَّجم (١)

(ســـتار)

(١) القبر - سمي بذلك لما يجمع عليه من الأحجار

الفصل الثالث

(أمام دار نبيه بحي بني عذرة تجلس بثينة ومعها بعض الاقربين من)
(الرجال والفتيات يصطلون و يدار عليهم شراب القهوة بينما)
(تدخل عليهم ليلى بنت خالتها ومعها سهيل قادمان من الحج وعليه)
(برد حجازي وانقلا أخبار جميل)

ليلى

يابثينةُ ذا سُهَيْلٌ نسل أجدادٍ كرامْ
كان بالأمسِ مُطيفاً بالعتيقِ (١) وبالمقامْ

بثينة

مرحباً أهلا وسهلاً جادَنَا ذاك الغمامْ
(تصافحه بثينة)

عبد الله

وبقلبي زَفَراتٌ من هوى البيتِ الحرامْ
(يصافحه عبدالله)

عمير

ياسُهيلَ الخيرِ مَرْحىً نلتَ أشهى مايُرامْ

---

(١) البيت (العتيق) الكعبة

أنتَ فينا بدرُ تِمٍّ قد تجلّى بالتّمامْ

(يصافحه عمير)

عبد الله

كيف لا والحجُّ فرضٌ قائمٌ فى كلِّ عام
فى شهورٍ فُضليات هى رمزٌ للسّلام
لا فسوقٌ لا جدالٌ لا نزاعٌ لا خِصام
بل وئامٌ واتحادٌ وائتلافٌ والْتآم

سهيل

كيف لو شاهدتَ جمعاً زاخراً حوْلَ المقام
ونفوساً ليسَ تُحصى كلُّها بالحجِّ هام
والبرايا فى اشتغالٍ بالمناسك فى الزّحام
والتُقى بادٍ عليهمْ والرضاء والابتسامْ
ضجّةٌ فى غيرِ بَغْيٍ وخشوعٌ واحترام
كيف يبغى أهلُ دينٍ هم دعاة للسّلام ؟

نجيا

هكذا الاسلامُ دينٌ جاء يرعى للذِّمامْ

أم الحسين

سُهيلٌ عرفنا ماذكرتَ تفضلاً فهل من جوابٍ للسؤال الآتي؟
قَدِمْتَ علينا اليومَ من أرض مكةٍ فكيف جُموعُ القومِ في عرفاتِ؟

سهيل

هناك: تَرَيْنَ القومَ يدعون ربَّهم بمُختلَفِ الأقوالِ والدعواتِ
قد اتَّحدوا في زيِّهم رغمَ أنَّهم قد اختلفوا في الجنسِ واللَّهجاتِ
فأعمالُهم في الحجِّ تُدْنى بعيدُهم وترمي إلى جمعٍ ولمَّ شتاتِ
إذا ما وقفنا بالصُّخيراتِ وقفةً بها وقف المختارُ للدَّعواتِ
وهبتْ علينا نسمةٌ من جبالها تَهُبُّ على الاخيارِ بالرَّحماتِ
رأيتِ أُناساً ألهبَ الشوقُ قلبَهم ففاضت دموعُ العينِ بالعبراتِ
يُنادون يارَبَّاهُ حُطَّ ذنوبَنا على جبلِ الرِّضوانِ والرَّحماتِ
علا في السماءِ الذِّكرُ من كلِّ جانبٍ
وسبَّحت الاحجارُ في الفلواتِ

تكادُ تخرُّ الراسياتُ لربِّها وتجثُو كجثوِ النَّاسِ فى السَّجَدَات

فساءلتُ نفسى هل دعا الناسَ ربُّهُمْ

إلى الفصل يومَ البعثِ والحسرات ؟

وهل قام أهلُ القبرِ من رقدةِ البِلَى وصدَّق أهلُ الكفرِ بالآيات؟

حُفاةَ عراةً يُوفِضونَ كأنَّهمْ إلى نُصُبٍ قاموا من الحُفرات

أَسرِّحُ طرفى فى وجوه تجمَّعَتْ على البِرِّ والخيراتِ والحسنات

فلستُ أرى الاوجوهاً تباشَرتْ فَطُوبَى لأهلِ الأوجه النَّضرات

وفى عرفاتٍ قد شَهِدتُ عجائباً تُقَصِّرُ عن وصف لها أبياتى

رأيتُ ملوكَ الأرضِ تمشى بذلَّةٍ فلا فرقَ بين أجلِّهِمْ ورُعَاةِ

وأكبرَ أهلُ السوءِ ما كانَ منهمُ وما أسرفوا فى سالفِ السنوات

فضجُّوا إلى الرحمن يرجون عفوَهُ وفاضت دموعُ العينِ منهمرات

وشاهدتُ أهلَ الصِّينِ وهىَ بعيدةٌ

وألفيتُ أهلَ الهندِ فى الجنبات

كذلك أهلُ الشّامِ خلقٌ تجمّعَتْ
ومن مِصْرَ أهلُ البِشْرِ والقَسَمَاتِ
ومِنْ كلِّ فجٍّ فى بلادٍ تباعدَتْ
مَواقعُهَا فى الأرضِ مُختلِفَاتِ
تُجمِّعُهَا الفُصْحى ويُدْنى بعيدَها
كتابٌ قديمٌ مُحكمُ الآياتِ
ويرفَعُهَا الاسلامُ فى كلِّ حالةٍ ويجمعُها بالحجِّ والصّلواتِ
ويَضْمَنُ للمِسكينِ كلَّ سعادةٍ بما فرضَ الرحمنُ من صدقاتِ
فأيقَنْتُ أن الحجَّ فيهِ منافعٌ تدومُ وتبقى فى مدى السنواتِ

(يبدو على بثينة الاشفاق)
(وكادتْ تحتبس فى عينها دموعا)

أم الحسين

ماذَا أراهُ بناظريكِ بُثينةُ؟ هذى دموعُ العينِ كالغُدْرَانِ

بثينة

ذِكرُ الحجيجِ أفاضَ دمعيَ ساكباً
قد هيَّجَتْ ذكراهُ من أشجانى

وجميلُ فيهم يَرتجُونَ دواءَهُ والدَّاءِ أعياهُ وقد أعيانى
إنِّى لأسمعُ فى المساءِ بُكاءَهُ وأنينهُ من هذه الغيران (١)
جسمان قد شتَّا وروحٌ واحدٌ ويلاهُ! هذا الدَّهرُ قد أشقانى
إنى لأعلم أنهُ يَبكى جوًى وبُكاؤه فى البُعد قد أبكانى

أم الحسين

لاتجزعى ياأُختُ ذاكَ توهُّمٌ ووساوسُ الأفكار والشيطانِ

سهيل

كلاَّ فما هو غيرُ صدق محبةٍ وطهارةُ الأرواحِ والوِجْدانِ
فكأنَّها معَنَا تُشاهِدُ حالَهُ وتراه يشكو لوعةَ الهجرانِ

نجيا

معكمْ؟ وهل فى الحج كان لقاؤُكمْ؟

(١) الغيران: مفردها غار وهو كالبيت فى الجبل أو المنخفض فيه ويجمع أيضا على أغوار

بثينة

ربَّاهُ ثبِّتْ باليقين جنَانى

سهل

فى الحجِّ يا ويلاه كان تعجُّبى عندالطَّواف رأيتُ ماأبكانى
النَّاس مشغولون فى أعمالهمْ يتسابقون تسابُقَ الفرسَانِ
ويُكبِّرونَ اللهَ فى غدواتهمْ فى كلِّ ناحيةٍ وكُلِّ مكان
وجميلُ يبكى حيث ساروأينما حملَتْه بين جُموعِنَا القدَمَان
وأبوه يبكى بالدُّموع ذَوَارِفاً من خلفه شخصان ينتحبان
وكثيرٌ يَرثِى لحال صَديقِهِ والدَّمعُ من عينَيْهِ كالطُّوفان
والجمع يبكى من شديدِ بكائهمْ وبُكاءِ هذا الجمعِ قد أبكانى
فسمعتُهُ يهذى بذكرِ بُثينَةَ ويقولُ يا ويلاهُ ماأشقانى
وأبوه يزجُرُه لينسىَ ذكْرَهَا فيئنُّ من وجدٍ ومن أشجان
ويقول يارباهُ زد كَلفى بها لاتُنسِ قلبى ذكْرَها ولسانى
فى الحجِّ أنسانى المناسكَ حبُّها ياحسرتا من غَضبةِ الدَّيان

ويفيض دمعي في الصلاةِ لأجلها ويلاه مما يكتبُ الملكانِ

بثنة

ربّاه ماضلّ الوفيُّ وماغوى فبكاؤه قد رنّ في آذاني
وأرادُ إن شطّ المزارُ وإنهُ في البُعد يسمع أنّتي ويراني
والحبُّ إن قويتْ دعائمه سما ونما على الأيّام والأزمان
من لم يُحبّ فلا حياةَ لقلبه
والقلبُ أصلُ الحسّ والوجدانِ
مَنْ يَجْحَدِ الاخلاصَ هذا قلبُهُ قد قدّ من صخرٍ ومن صوّانِ
لاذنبَ لي إلا الوفاء وإنّهُ ذنبُ الكرام وزلّةُ الشجعان
يبكي جميلٌ بالطوافِ وإنّني أبكي بدمع الثُكلِ كالفيضَانِ
كم ليلةٍ آويتُ نحو مَضاجعي فجفا الكرى جَفْني وبتُّ أعاني
ما كنتُ أعرفُ ماالسُّهادُ وما البكا
حتى أتى ساقي الهوى فسقاني
فشربتُ كأسَ الذلّ وهي مَريرةٌ وكرعتُها فتكاثرَتْ أحزاني

جُرحان فى قلبى : جُرحُ فِراقِهِ والزَّوْجُ بالاكراهِ جُرحٌ ثانِ
وأنا القتيلةُ بالزَّواجِ وبالهوى ياويلتا : ربَّاهُ ماأشقانى

ليلى

مَهْلا بثينة قد أضرَّ بكِ البكا وتدرَّعى بالصَّبرِ والكتمان

(ومخاطبة الجلوس)

انِّى أخاف إذا بَقِينا هَهُنا أن تستمرَّ على البكاءِ تُعانى

فالى اللقاء بثينة

بثينة

لا تعجلوا

ليلى

بل أسرعوا ياخيرةَ الاخوانِ

(يخرجون جميعا ويتفرقون من نواحى المسرح الذى يخلو إلامن)
(بثينة ورباب - يظهر من جانب المسرح الآخر جميل وصاحبه)
(كثير متنكرين فى ثياب رعيان الغنم)

جميل

اليوم أحكى راعِىَ الأغنامِ والأمس : كنتُ بمئزَرِ الاحرام
لى شاهدان على هواكِ : تَغرُّبى عن مَوْطِنى وغزيرُ دمعى الهامِى

لم انتفع بالعيش بعدكِ لحظةً ... ويقودُني للدارِ فرطُ غرامي

هل تلك دارُ الحبِّ في زمن الصِّبا ... عصرِ الشَّبابِ وسالفِ الأيام؟

أيامَ كان العيشُ حلواً صافياً ... والطهر من خلقي ومن قُدَامي

وبثينةٌ تجري وتمرح كالظبا ... وتجول في وحيي وفي إلهامي

أم تلك دارٌ أنكرتْ عهدَ الهوى ... وتنكرت لا تستجيب كلامي ؟

يادارُ ماذا قد دهاك فبيِّني ... قولي عساك تخفِّفي آلامي ؟

يادار هل اشقاكِ دهرُك مثلما ... جار الزَّمانُ عليَّ بالاسقام ؟

يادارُ مالك تُنكرين مودَّتي ... لم تذكري عهدي وصِدقَ ذمامي

يادار لم أعهدْ ربوعَك خُرَّساً ... سلَّمتُ لم تَرُدُدْ عليَّ سلامي

من مبلغ من فيكِ أنيَ جارُهمْ ... همُ مبعث الآمال والآلام

كثير

رفقاً بنفسك سوف تلقاها هنا ... فبكاك يرمي مهجتي بسهام

سِرٌ للخباء ولا تو جَّسْ خِفيةً ... أنا من ورائك حارس ومُحام

(يتخلف كثير بينما يدنو جميل من الخباء متوسلا)

جميل

(هل البائسُ المقرورُ دانٍ فمصطلٍ من النارِ أو مُعطًى لحافًا فلابسُ؟)

(تتقدم اليه رباب مسائلة)

رباب

مَنْ أنتَ يا راعى وماذا تبتغى ؟ بَيِّنْ فنحنُ أبرُّ بالفُقَراءِ

جميل

أنا بائس أخنى عليه زمانُهُ فبسطتُ كفَّ الذُّلِّ للكرَماءِ

لاثوبَ يسترجسمه هل عندكمْ من رأفة بجماعةِ البؤساء ؟

(تنظر اليه رباب باشفاق وتتركه وتذهب لسيدتها)

جميل

(لنفسه)

كم جئتُ دارَكِ فى ثياب تَنكُّرٍ

من خشيةِ اللوَّامِ والرُّقَباءِ

أتعلَّلُ الأشياءَ فى طلبِ اللِّقا والوصلُ غايةُ مُنيتى ورجائى

رباب

(مخاطبة سيدتها)

بالباب مسكينٌ فقيرٌ بائسٌ خَلَقُ الثيابِ وحائعُ الأحشاء
يبكى ويسألُ لُقمةً أورُقعة أو رَحمةً من مُشفِقٍ معطاءِ

بثينة

قُومى رباب فأدخليه وأكرِمى مَثْواهُ لايشكو منَ الأسواء
لاتنهريهِ وردِّحِي بقدُومِهِ طوبى لمن يحنُو على الغُرَبَاء!!
لاتحقِرى شأنَ الفقيرِ فتجرِحى إحساسَهُ تحظى بخيرِ جزاءِ

نحن الفقيرُ نجلُّهُ ونحبهُ ونُعزُّه كمعزَّةِ الأبناء
لاتقهريه فحالُه من حالتى هو بائسٌ وأنا من البُؤساء
قولى لأرباب الغنى لاتبخلوا بزكاةِ مالٍ زاد عن إحصاء
يُصلحْ بها هذا الفقيرُ حياتَهُ ويعيشُ فى بُحبُوحةٍ وهناء
لا بل أقومُ إليه أمسحُ دمعهُ بيدى أطيِّبُ خاطرَ التعساء

(تهم بثينة وتقبل على جميل)

بثينـــة

يامرحباً بالضَّيفِ حلَّ ديارَنا

جميل

(وهو مقبل عليها يتلهف)

يامرحباً يامُنيتي ورجائي

(تتعرفه بثينة فتبكي)

بثينة

(بذهول)

أجميل ؟! هل هذى حقائقُ أثبتت

أم تلك أحلامٌ يراها الرَّائي ؟

هل أنت حقاً ياجميلُ بجانبي أم أنتَ يارُوحي بعيدٌ ناء ؟

جميل

لاتعجبي فاللهُ جمَّع بيننَا من بعد طولِ تباُعدٍ وتنائِ

بثينة

ماهذه الاثوابُ ؟ بَدِّلْ غـــيرَها

جميل

لا بل دعيها تَبْدُ للرُّقباءِ
هي حيلةٌ أبدو بها متنكراً من بعد إبعادي وهَدْرِ دمائي

بثينة

مالي أراكَ اليومَ أصفرَ شاحباً والسقمُ دَبَّ بهذه الأعضاءِ؟

(والى رباب)

قومي رَبابُ الى الطعام فهيِّئي

جميل

لاحاجةٌ . والوصلُ فيه شفائي

(تخرج رباب)

بثينة

وصلٌ ! وهل بعد الزَّواج تَواصُلُ
أمْ بعدَ هذا السِّجنِ من إطلاقِ ؟
لاتذكرَنِّي بعد ذلك وانسني واذرِف لحالي دمعةَ الاشفاقِ
أصبحتُ في حالٍ يُروِّعُ ذكرُها وتزيد في وصف عن الارهاقِ

زوِّجتُ بالاكراه من هذا الذى أشقىَ به فى بُعدهِ وتلاقى
لا علمهُ علمى ولا هُوَ من دَمى أو مَن يُحاكى خلقُه أخلاقى
فتنافرَتْ أخلاقُنا وتباعدتْ أرواحنا بقطيعةٍ وشِقاقِ
أصبحتُ لا أهوى الطعامَ ولا أرى نفسى سوى مسجونةِ الارهاقِ
قد قلَّ من وجدٍ عليك تَصبُّرى فالى متى أشكو النَّوى وألاقى ؟

جميل

روحى فداؤك يا بثينةُ من جوًى أجرى عُيونَك بالبكا فدهانى
انى أراكِ كئيبةً محزونةً وهزيلةً من كثرةِ الأشجانِ

بثينة

لم تَشقَ مثلى حُرَّةٌ بعفافها أو تحتملْ مابتُّ فيه أُعانى
لم أنسَ عهدَك يا جميلُ فهل تُرى من بعد ذُلِّى فى الهوى تنسانى؟

جميل

أنسى وحُبكِ فى الفؤادو فى الحشى والهم من حُبِّيكِ قد أضوانى؟
هاتى يمينكِ فوقَ قلبى لحظةً حتى تُخفِّفَ مابقلبى العانى

فلذاكَ أقصى ما أُطالبُ فى الهوى والقربُ بالأرواح لا الأبدان
كمْ مرةٍ حاولتُ منكِ تقرُّباً بالجسم لكنَّ العفافَ نهانى
كم من مُحبٍ قد جنى باسمِ الهوى وهواى عُذْرىٌّ جليلُ الشانِ
أنا منْ أُناسٍ ان أحبُّوا برهنُوا عن طُهرهمْ بمتانةِ الايمان
والطُّهرُ يظهرُ عندَ موقفِ خلوةٍ اذ لا رقيبَ ولا عدُوَّ يرانى

بثينة

أنا ياجميلُ أُجلُّ فيكَ فضائلاً جلَّتْ عن التَّعْدادِ والتِّبيانِ
حُبِّى كحبُّكَ عِفَّةً وطهارةً وبهذه الأخلاقِ فقتُ زمانى
لم أبْغِ إلا أن أراكَ بجانبى فأعيشَ فى خيرٍ وطيبِ أمانى

جميل

(فى لوعة)

(أرى كلَّ معشوقين غيرى وغيرَها
يَلذَّان فى الدنيا ويغتبطانِ)
(وأمشى وتمشى فى البلاد كأننا أسيران للأعداء مرتهنان)
(أُصلِّى فأبكى فى الصَّلاة لاجلها لِىَ الوَيْلُ مما يكتبُ المَلَكانِ)

(ضَمِنْتُ لها الاَّ أهيمَ بغيرها وقد وثِقَتْ مِنى بغير ضَمانِ)
(ألا ياعبادَ اللهِ قُوموا لتسمعوا خصومة معشوقين يختصمانِ)
(وفى كلِ عامٍ يَستجدَّان مرةً عتاباً وهجراً ثم يَصطلحانِ)
(يعيشان فى الدنيا غريبين أينما أقاما وفى الاعوامِ يلتقيانِ)

(يلج جميل فى البكاء)

بثينة

لا تَبْكِ قد أذكيتَ نارَ جوانحى ورَمَيْتنى بالهمِّ والذوبانِ
لا تجزَعَنَّ إذا الهمومُ تكاثرتْ واصبر لحكمِ الواحدِ الدَّيانِ
والله لو يُرضى الفضائلَ أننى أدَعُ الدِّيارَ رَحلتُ منذُ زمانِ
لكننى صُنتُ الزَّواجَ وحقَّهُ وبكيتُ بالدمعِ الغزيرِ القانى

جميل

حَسناً فعلتِ فللزواج حقوقُهُ قد فُصِّلتْ فى الشرع والقرآنِ
للزوج عَهْدٌ لا تخونى عهدَهُ وتجمَّلى باللين والاحسانِ

(يدخل زوجها صاخباً)

نبيه

مَنْ ذلك العادى وماذا غرَّهُ حتى تجرَّأ لاقتحامِ الدَّارِ ؟

بثينة

هذا الطهارةُ فى ثيابِ رَثَّةٍ رَبُّ العَفافِ سَما على الأقمارِ
قد صانَ عِرْضَكَ فى غيابك لم يَخُنْ
فهو النبيلُ سُـــلالةُ الأطهارِ

نبيه

(فى جفاء)

لا تَذْكُرى هذا الفضولَ فانما وجَّهتُ للعادى عَلىَّ سُؤالى

جميل

أنا لم أكُنْ عادٍ ولاهى شيمتى أمْسك عليك فلستُ منك أُبالى

نبيه

بيِّنْ إذَنْ لم جئتَ دَارِىَ عابثاً تبدو بثوبِ خديعةٍ ومحالِ
قد جئتَ تُقلِقُ آمنين بدارهم ما تلكَ إلاَّ فعلةُ الأنذالِ

جميل

ياوَعْدُ جلَّ لديكَ أنى قادمٌ أقضى الوفاءَ حقوقَهُ بسؤالى ؟
لما نويتُ على الرَّحيلِ تبادَرَتْ منى الدُّموعُ فصرتُ أندُبُ حالى

وقدِمتُ ألقى نظرةً قبل النَّوَى والطُّهر أظهرُ عادتى وخلائى
وديار مِصرَ بعيدة لم أدرِ هلْ أقضى هُناكَ وتنقضى آمالى؟
لما قدمتُ عليك فى ثوب التقى أظهرتَ لى ثوبَ الخداعِ البالى

لنبيه

عجِبتُ لأمرِكَ كيف اجترأْ تَ وجِئتَ بثوب لراعى الغنَمْ؟
وقفْتَ تحاجِجنى بالكلا مِ وتُقسِمُ فى الحبِّ أو فى القَسَمْ
جنيتَ جنايَةَ غِرٍّ لئيـ ـمٍ فسر فى سبيلك سِرْ لا تقم
وإلا فخُذْ ضربةً فى الصَّمي ـمِ تُحيلك من وقتها للرِّمَم

(ويسل سيفه)

بثينة

أترفَعُ سيفَكَ فى وجهِهِ وما كان جانٍ ولا مُجترِمْ؟
رويدَكَ ما أنتَ كُفْءٌ لهُ أيعبَثُ قطُّ بليثِ الأَجَمْ؟

جميل

دَعيه بثينةُ حتى أُرِيـ ـهِ صُنوفَ الهلاكِ ومَعنَى الألَمْ

(ولنبيه)

وأنتَ استعدَّ لهذا الحما ... م تسيرُ به فى طريقِ العدَم

(يسل جميل سيفه ويتبارزان)

وخذْ أهبةَ لحياةِ الخلو ... دِ فموتك أمرٌ قريبٌ حَتَم

(يصرعه جميل)

ثم

(صائحاً)

ويلاهُ : هل منْ منُقِذٍ ... يأتى ويَنْظرُ حاليَهْ

صفحاً جميلُ فانّني ... أرجوكَ خَلِّ ذراعيَهْ

بثينة

بالله خَلِّ سبيلهُ ... ياذَا الصفات العاليهْ

واصفحْ لأجلى إنهُ ... قد تاب يَجرأُ ثانيهْ

جميل

من أجل حبِّكِ قد صفحْ ... تُ وهذه أخلاقيهْ

فلعله أن يرْعَوِى ... أو يقتـــدى بصفاتيه

أعفو وأصفحُ ان قدر ... تُ على العدوِّ الباغيه

واذا أساء جزَيْتهُ بالجود مِنْ احسانيه

(يهم بتقبيله بتثاقل وعلى غرة ينفلت منهما)

نقيه

(وهو يعدو)

سا ريكُمَا فى سرعةٍ ما جئتماه علانيهْ

وأجىء بالجمعِ الكثيـ ـر ليأخذُوا لىَ ثارِيه

(يخرج)

بثينة

مضَى ذلك الباغِى فتباً لغدرِه وأشقى حياتى قد سئمتُ حياتيا

وانى لأخشى أن يحرك فتنةً وأفديك مِنْ كيْدالجموع بِنفْسِيَا

جميل

دعى عَنكِ هـذا يابثينةُ إنمَّـا أتيتُ لأدنُومنكِ قبلَ رحيليَا

بثينة

برُوحى جميلٌ لستُ أنساكَ لحظةً

وبُعدُكَ يُشقينى ويُجرى بُكائيا

جميل

كذلك بُعدى عنك يابثن قاتلى فياليت عيشى كان منك مُدانياً
(لقد خفت أن يغتالنى الموت غُدوةً وفى النفس حاجاتٌ اليك كما هيا)
(وإنى لتثنينى الحفيظةُ كلما لقيتك يوماً أن ابثك مابيا)
(ألم تعلمى ياعذبةَ الماء أننى أظَلُّ إذا لم أسقَ ماءك صاديا؟)

بثينة

إلى مصر تبغى ياجميلُ فهل ترَى إذا سرتَ هل أحظى بوصلك ثانياً؟

جميل

جزى الله قوماً ظالمين ببغيهم سعَوْا لشقائى واستحلوا دمائياً
سأرحل مجبوراً فصبرا على الذى قضى الله من وجد يذيب فؤاديا
(ومازلتِ بى يابثنَ حتى لوانّنى من الوجد استبكى الحمامَ بكى ليا)
(إذا خدِرَتْ رجلى وقيل شِفاؤُها
دعاءُ حبيبٍ كنتِ أنتِ شِفائيا)
(وددتُ على حُبِّ الحياةِ لو أنّها
يُزادُ لها فى عُمرها مِنْ حياتنا)

(وهم بالخروج)

وداعاً حياتى

بثينة

رَبِّ ما أصعبَ النَّوى وهل بعد هذا النَّأى نَرجُو تلاقيا؟

(يتعانقان عن بعد)

جميل

(وهو خارج)

على الرَّغم يا ربَّاهُ سرتُ مفارقاً فهيِّء لها خيراً وصبِّرْ فؤاديا

(يسير حتى يختفى عن نظرها وهى تتبعه ببصرها)

بثينة

ربَّاه خفِّفْ علينا اليومَ بلوانا إنَّ الزمانَ بهذا البَيْنِ أشقانا

وفَيْتُ فى حبِّه: ما كنتُ عابثةً والدَّهر يَعْبَثُ بالأطهار أحيانا

الحبُّ يجمعنا فى نُبل غايته والدَّهرُ فرَّقنا ظلماً وعُدوانا

على الوفاء تعاهدنا فليس لنا

فى خالص الحب غير الصدق بُرهانا

ومن يكن حبُّهُ طُهراً وعاطفةً

لا يَصدَعُ الدَّهرُ من مبناه أركانا

سما العفافُ بروحَيْنا والبسنا
في رتبةِ الحب والاخلاص تيجانا
من يدّعي الحُبَّ والاسفافُ غايته
كانت محبتـــه زورا وبُهتانا
كم مرةٍ قد خلونا ليس من أحدٍ يرى ويسمع إلا اللهُ مولانا
فلم يكن غيرُ مايرضى الالهُ به من شأننا وعيون الله ترعانا
وإن يكن دهرنا بالبينِ فرّقنا فمنزل الحب والاخلاصِ آوانا

(ســـتار)

الفصل الرابع

المنظر الاول

(إيوان فى قصر الامير عبد العزيز بن مروان والى مصر من قبل)
(أخيه عبد الملك بن مروان الخليفة الاموى ـ الايوان على الطراز)
(العربى فهم مؤثث بأفخر الاثاث وتظهر من شرفاته الحدائق المحيطة)
(بالقصر . ينقسم الايوان الى قسمين بستار من الوسط فى النصف)
(الايمن حجرة صغيرة لسكنى جميل ـ والى اليسار كرسى فخم له)
(أربعة عمد هو عرش الامير وفوقه لوحة كبيرة مكتوب عليها)
(بالخط الواضح الجميل الآية الكريمة (واذا حكمتم بين الناس)
(أن تحكموا بالعدل)

(يرتفع الستار عن بعض رجال الحاشية حول العرش يتنافشون)

أحد رجال الحاشية

انّى أرى أنَّ الاميرَ مفكرٌ وبمقدم الضَّيف المتيم يحتفى

رجل آخر

انَّ الاميرَ على الزَّمان مساعدٌ يُؤوى الغريب ويرحم التَّعب الوفى

الاول

لكنَّه بذل الكثيرَ مرحِّباً وببذله من أجله لمْ يكتف
حتى يُخصِّصَ حُجرةً من قصره ويرى بهذا نَفْسهُ لم يُسرِفِ

ثالث

إنِّى لأذكُرُ موقفى يوماً وقد شاهدتهُ يُعطى بغير تكلفِ
ويقول إنَّ المال عاريةٌ إذا أنفقتهُ فى الخير كان مُشرِّفى
لاتُغلقوا بابى فما بذلى سوى ذِكر يُخلَّدُ أو ثوابٌ مُسعفى
ما المال والاولادُ إلاَّ زينةٌ والباقياتُ مُعينَتى فى مَوْقفى

الثانى

حقاً فأنتم تعرفون مكانَهُ وبكاءهُ رفقاً بقلبِ المدْنَفِ
عبد العزيز يُرى كريماً باذلاً وأبوه مروان الخليفةُ فاعرف
وأخوه فى أرض الشآم خليفةٌ والبذل فيهم خلةٌ لاتختفى

الاول

طبعاً فلستُ بجاهلٍ إحسانَهُ كافاه ربّى بالكثير المُضعف

الثالث

لاتعجبوا هوَ لم يُنِلْ إحسانهُ لِفتى تبذَّلَ فى هوَاهُ ولم يَفِ
لكنْ لحرٍ صادقٍ فى حُبِّهِ وجميلُ لم يَكُ عاشقاً بتكلفِ
صارت طهارتُهُ مثالاً يُحتذَى بين الشعوبِ وذكرُهُ لايختفى

الاول

لكننى شاهدتهُ فرأيتُـــهُ بادى الهزال من الغرام المتلف
فكأنهُ فى صمتهِ وكلامهِ رمز الهوى أو شعلةٌ لاتنطفى

الثانى

الحبُّ يَقْتُلُ أهلهُ ولهم على أبوابه دَمْعُ الحزين الخائف
الحبُّ تضحيةٌ وبَذْلٌ فى الهوى من يَهوَ لم يَبْخَلْ ولم يتوقفِ
من لم يَذُق مُرَّ الهوى عذباً فقد جهلَ الغرامَ وللهوى لم يَعرِفِ
هذا جميلٌ لم يُكحِّلْ جفنُهُ بالنَّوْمِ يَذْرِفُ دمعَهُ بتلهفِ
حتى عراه السقمُ من فرطِ الهوى لم يَهْوَ غيرَ بثينة أو يأنَفِ

الثالث

هيَّا اسمعوا هذا هُتافٌ قد دنا

آخر

عاد الامير بموكبٍ مُستَظْرَفِ

(تسمع من وراء الستار أصوات وضجيج)

آخر

(وهو ينظر الى ماوراء الستار ويهيب باصحابه)

هو ذاك يبذل عن سخاءٍ ماله ولقد دنا منّا فقوموا نحتفي

(يقسم الامير بين الضجيج والهتاف)

الهاتفون

(من وراء الستار)

عِشْ يا أميرُ فى هنـاء لا زلتَ تُرجى للعطاء
وعليك ألسنةُ الثَّناء تُطرى على مرّ السنينْ

أنتَ الجوادُ الباذلُ أنت الأمير العادلُ
أنت الهمامُ الفاضل يحميك ربُّ العالمينْ

عش يا أمير فى هنـاء لا زلت ترجى للعطاء
وعليك ألسنة الثنـاء تطرى على مر السنين

أنت أمـــيرُ مِصرِنا بل أنت تاجُ عِزِّنا
قد جئتَ تبني مَجدَنَا بالعدْلِ والحقِّ المبينْ

عش يا أمير فى هنـاء لا زلت ترجى للعطاء
وعليك ألسنة الثنـاء تطرى على مر السنينْ

منذ أتيتُمْ يا عَرَبْ زال التعسفُ والكُرَبْ
وبقربكُمْ نلنا الأرَبْ أقباطُنا والمسلمونْ

عش يا أمير فى هنـاء لا زلت ترجى للعطاء
وعليك ألسنة الثنـاء تطرى على مر السنينْ

سَلْ حكم رومانيَا يُجبْ أنَّ الفضائلَ للعربْ
حيثُ العنا عَنَّا ذهب لمَّا قَدِمتمْ فا تحين

عش يا أمـــير فى هناء لازلت ترجى للعطاء
وعليـــك ألسنة الثناء تطرى على مرِّ السنين

لم نَنْسَ يا عَمرُو يَدَكْ مُذْ خُضْتَ هذا المعتركْ

أنجيتَ من كاد هلكَ وغدَوْتَ فخرَ الفاتحين

عش ياأمـــير فى هناء لازلت ترجى للعطاء

وعليـــك ألسنة الثناء تطرى على مرّ السنين

(يدخل الأمير ومن ورائه بعض الجند ورجال)

(الحاشية وغلام يحمل أوراقا - يقتدره أحد)

(رجال الحاشية بعد أن يجلس على العرش بقوله)

الرجل

مولاى يأذَنُ فى الكلام لعبده ؟

الامير

لابلْ أخوك : وهكذا الاسلامُ

لم نأتِ لاستعبادِ قومٍ آمنوا ولِقبْطِ مصرَ بعهدِنا أرحامُ

قُلْ لاتَخَفْ : إنَّ النصيحةَ واجبٌ

يُصغِى له الافـــرادُ والحكّامُ

الرجل

مولاى يبذُلُ عن سخاءٍ وافرٍ لم يدَّخِرْ ما تَطْلُبُ الايامُ

الامير

من كان يبذلُ مالَهُ لبلادِهِ ولِرِفعةِ الاسلام ليس يُضامُ
ماضرَّني بذلي ولمْ يكُ نافعي بُخلي : وعندي للفقيرِ ذِمامُ
ماذا يُفيدُ المرءَ من مال إذا باتَ الفقيرُ على التراب ينامُ ؟
ماذنبُ هذا الطِّفلِ ماتتْ أُمهُ وأبوه ماتَ وحولَهُ أيتامُ ؟
ماذا جنى هذا المريضُ بسُقمِهِ والدَّاءُ أعياهُ كذا الآلام ؟
أنا إنْ بذلتُ فللمروءةِ والنَّدَى وعليهما قد دلَّنا الاسلامُ
أنا إنْ بذلتُ فللرَّعيَّةِ أُوفِها حقاً عليَّ فلستُ عنهُ أنامُ
أنا إنْ بذلتُ فللمساجدِ أبْنِها ولدورِ علمٍ في البلادِ تقامُ
أنا إنْ بذلتُ فلستُ أوَّلَ باذلٍ سَلْ قبلنا من للحدود أقاموا
أنا إن سَهِرتُ على الرعيةِ لم يَنم عمرٌ ولم يعذُبْ لديْهِ منامُ
أنا إن بكيتُ على اليتيمِ فقد بكى قبلي هُداةُ الأنام كِرامُ
أنا إن جعلتُ الامرَ شورى فاسألوا
كم بالمشورةِ نُفِّذَتْ أحكامُ

أنا إن حضضتُ على الصلاة فسائلوا من للصلاة وللفروض أقاموا
ماجئتُ بدعاً : إنما أنا تابعٌ فى الخير للهادى عليه سلامُ

الحاجب

مولاىَ بالباب أنى قُسٌّ علينا قد وَفَدْ
واثنان أيضا خلفَهُ هل يدخلون : بما أُرِدْ؟

الامير

فليدخلوا من وقتهم لا تمنعُوا عنّى أحدْ
فلهُمْ علينا ذِمّةٌ تُرعى وعهدٌ لا يُرَدْ

(يخرج الحاجب ويقدم القسيس ومن خلفه)

القس

يومٌ سعيدٌ سيّدى

الامير

أهلاً بكُمْ ياخيرَ وَفْد

القس

جئنا لأمرٍ قد دَعَا

الأمير

خيراً : فأىُّ الامرِ جدَّ ؟

القس

لاشىءَ إلاَّ أنَّهُ نقضٌ لعهدٍ أولِوَعْد
جارت رعيَّتُكُمْ على أرضِ النصارى فى البلد

الامير
(مستكراً)

أرعيَّتى يتعسفو نَ ويعبثونَ لغيرِ حدْ ؟
طِبْ خاطراً ياجارنا سأرى بنفسى ما يجد
ماكنتُ يوماً ظالماً لستُ الأميرَ المستبد
جئنا لنُصلحَ فى الدِّيا رِ ونسلكَ الأمرَ الرَّشدْ
لسنا كمَنْ إنْ سيطرُوا عاثُوا فَساداً فى البلد
هتكوا عُروضَ الطَّاهرا تِ وجمَّعُوا مالاً لُبدْ
هدَمُوا المعابدَ عُنْوةً وتمايَلوا فى غيرِ جد
تشكوا الأراملُ عسفَهُمْ والأمُّ تبكى والوَلدْ

العهدُ فيهم ضائعٌ والخُلقُ فيهم قد فَسَدْ
نحنُ الأُولى إن مُلِّكوا نَصَرُوا الضعيفَ إلى الأبدْ
قُرآننا يَدْعو الى حِفظِ الحقوقِ ورَعْيِ عَهدْ
لكنَّكمْ كنائسكمْ تقامُ لمن تهجَّدَ أو عَبَدْ
لاتُستباحُ حقوقُكمْ والعهدُ باقٍ ما فَسَدْ
مهما غلا من حقِّكمْ أو كان حبلاً من مَسَدْ

القس

شكراً أميرَ العادلين وصاحبَ الرَّأي الأسَدّ
شكراً فكلُّ فضيلة منكم أتتْ ولكمْ ترد
شكراً فعدلُك ظاهرٌ لم تَبْغِ قطُّ على أحدْ
فالعدلُ فيكم خَلَّة والفضلُ منكمْ مستمد
هذي يدَي على التحا لفِ والوفاء إلى الابدْ

(ويمد يده فيتصافحان)

الأمير

(وهو قابض على يد القس بيمينه ورافع يساره الى السماء)

ربّاهُ هذا عهدُنا نرجُو به خيرَ البلدْ

(يخرج القص ومن معه ويشيعه)

(الامير ثم يأتى فيجلس على عرشه)

الامير

فُضَّ الرسائلَ ياغُلَامُ ونبِّنى ماجاء فيها عن أمير المؤمنينْ

الغلام

سمعاً أميرى : ذاك نص خطابه لازال مولانا نصيرَ المسلمين

(نص الرسالة)

الحمدُ لله الذى قد عمَّنا احسانُهُ حمدَ العبادِ الخاشعين

ثم الصلاةُ على النبى محمدٍ الصَّادقِ المَصدوقِ والبَرِّ الأمين

من عابدِ الملكِ بنِ مَرْوان إلى عبدِ العزيزِ أميرِ مِصرَ على السِّنين

اعلمْ أخى أنَّ الحياةَ خديعةٌ فاحذركماخَشِىَ الوُلاَةُ الأوَّلُون

نحن الولاةُ ونحن أولى بالذى قد جاءنا من عندِ ربِّ العالمينْ

نحنُ الرُّعاةُ وكلُّ راعٍ فى الورى عمَّا رعى سيجيبُ ربَّ المالكين

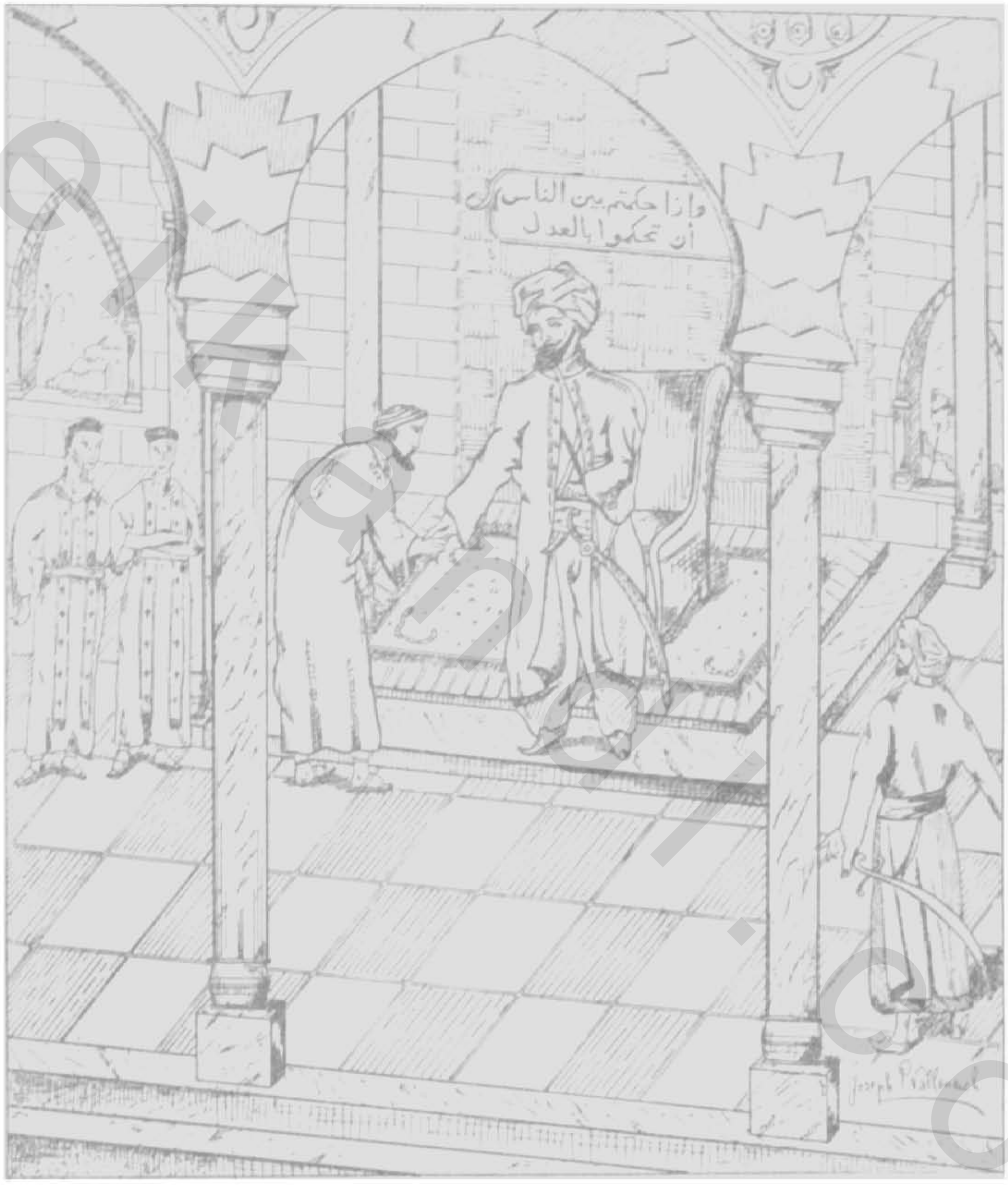

ربَّاهُ هذا عهدُنا نرجُو به خيرَ البلدْ

obeikandl.com

فاعدِلْ أخي فى الحكم لا تكُ ظالماً واسلكْ سبيلَ الحقِّ نهجَ الراشدينْ
واجعلْ كتابَ الله فيكم فَيْصَلاً فهو الدَّليل وحكمه الهدْى المبين
أقِمِ الحدُودَ ولا تُمالِئْ عابثاً يبغى ويَعبثُ فى ديار الآمنين
واصفحْ إذا كان التَّسامحُ واجباً لو كنتَ فظاً لم تجد أحداً يُعين
واستوصِ خيراً بالبئيس إذا أتى يرجو النَّوالَ ولا تَرُدَّ السائلين
واعقِدْ برأسِ المسلمينَ أُخوَّةً كلُّ السَّعَادَةِ فى اخاءِ المسلمين
واكْتُبْ إلىَّ بحالِ مِصرَ وما بها
هى كوكبٌ فى الشرق وضَّاحُ الجبين
بلِّغْ جميعَ القاطنينَ بأنَّنَا بالعدلِ والاحسانِ سُدْنا العالمين
لولا تمسُّكُنَا بهَدْىِ كتابِنَا ما كان مِنَّا مَن يُسوسُ الآخرينْ

الامير

صدقَ الخليفةُ : ربِّ وفِّقْنى إلى إنفاذِ أمرِكَ يا أميرَ المؤمنين

(وبعد برهة)

قوموا لنسألَ عن جميلٍ إنَّنى خَافَتْهُ يشكو من الأحزانِ

وذهبتُ أمس أزورُه فوجدتُه في حالة تبكى لها العَيْنَانِ
ربّاهُ هل يَقضِى بمصرَ من الجوى؟ أسفى عليهِ فما له أبكانى

(ثم الى الغلام)

قُمْ يا فتى فادخل عليه مسلّماً مُستأذناً وارجعْ لنا بالثّانى

(يمضى الغلام من وقته ويطرق باب جميل قائلا)

الغـــلام

مولاى يرغبُ فى زيارتكم فهل نرجو دخولاً بعد الاستئذان ؟

(بفتح كثير الباب ويخرج)
(اليه فيرى جميل متكئاً على)
(السرير فى حالة مرض شديد)

كثـــير

دام الأميرُ مواسياً ومخفّفاً عن كل صَبٍّ ما يبيتُ يُعانى

(ويمشى الى الامير ومن ورائه الغلام)

أهلاً بمقدمكُمْ تفضّلْ سيّدى كافاك ربُّ الجودِ والاحسانِ

(ينهض الامير ومن ورائه)
(الحاشية ويدخلون على جميل)

الامير

(وعاتبا على جميل)

لا بأسَ يا رمزَ الوفاءِ ولا تكُنْ متأثِّراً بوساوسِ الشيطانِ
فلئن بَعُدْتَ اليومَ فاصبر فى غدٍ تحظى بنَيْلِ سعادةٍ وأمانى

جميل

(فى صوت خافت تظهر من نبراته علامات)

(المرض الشديد)

من ذلك الجاثى يُواسى من غدا مَيْتاً يُقاسى لوعةَ الأحزانِ؟

كثير

هذا الأميرُ أتى وخيرُ صحابِهِ يحثُو عليكَ برقَّةٍ وحنانِ

(جميل)

(مشيراً الى الامير)

مولاى كم أوليتَنِى من نعمةٍ جلَّتْ عن التَّعدادِ والتِّبيانِ
مولاى عُذْراً إذ عجزْتُ فلم أقُمْ آهٌ : فهذا السُّقْمُ قد أعيانى
مولاى أنتَ أجلُّ من أن تأتِنِى وأنا الحقيرُ مُشرَّدُ الأوطانِ

قمْ للعظائم سَيِّدى واترُكْ هُنَا شخصاً كئيباً للهُموم يُعانى
أخرجتُ من وطنى وأنتَ أوَيْتَنى وغمرتنى بالفَضْل والاحسان
وأتيتَ قبل الموتِ تمسحُ عَبْرَتى
وتُجِلُّ من أمرى وتكبرُ شانى

الامير

لاتَذْكُرَنْ هذا الكلامَ فإنَّما أنت العظيمُ على مدى الأزمانِ
أىُّ العظائم غير شأنك تُرتجَى ياسيِّدَ الأمجاد والشُّجْعَانِ؟
ليس العظيمُ هو الذى دوماً يُرَى بين البريَّةِ لابسَ التيجانِ
ليس العظيمُ هو الذى يختالُ فى مشى ويحتقرُ الفقيرَ العانى
ليس العظيم هو الذى مِن حوله جمعٌ أتى للزور والبُهتانِ
إنَّ العظيمَ هو العفيفُ إذا هوى وهو الوفىُّ وليس بالخوَّانِ
وهو الذى فى الحبِّ يبذُلُ رُوحه ويفيض من طُهرٍ ومن إيمانِ
هوِّنْ عليكَ فما أصابكَ زائلٌ وغداً تفوزُ بصحَّةِ الأبدانِ

جميل

هيهاتَ قد دَنتِ المنيَّةُ بعدما زادَ الغرامُ وقد عَدِمتُ تَصبُّرِى
هيهاتَ هلْ بَعـــد المنيَّةِ يُرتَجى
عَيشٌ وهل فى الموتِ حرٌّ يَمترِى ؟
لم يَبقَ لى أملٌ ولم أكُ باغياً إلا دنوَّكِ يابثينةُ تَنظُرِى
(لا تحسبى أنى هجرتكِ طائعاً
حدَثٌ لعمركِ رائعٌ أن تُهجرِى)
(بهواكِ ماعشتُ الفؤادُ وان أمُتْ
يَتبَعْ صداىَ صداكِ بينَ الأقبُرِ)
أقضى بمصرَ وأنتِ فى وادى القُرَى
والقلبُ لم يغـــدُرْ ولم يتغيَّرِ
فى النفس حاجاتٌ اليكِ فهل تُرى
تُقضى أمْ اقضى دونهـا لم أذكُرِ ؟
عزَّ اللقاءُ على الحياةِ فهل لنا قبل الترحُّلِ وقفة لنفكرِ ؟
أُشهدكِ فيها أنّنى صنتُ الهوى وأموتُ لا أنا غادرٌ أو ممترِ

من ذا يبلِّغُ بثنةَ أنّى هنا فى النَّزْعِ أبكيها بدمعٍ أغزرِ ؟
وأموتُ فى مصرٍ ، ومصرُ غريبةٌ عنّى : فلا أهلى بها أو معشرى

(يبكى جميل بثينة ويعتريه شبه الغشى)

الأمير

يا جميـل لا تبالغْ فى التأسُّفِ والبكاءْ
أنت بين الأهلِ فاعلم أنّنا أهلُ الوفاء
مصرُ تُؤْوى كلَّ حرٍّ وتُجِلُّ الغُرَبَاءْ
مصرُ أهلوها كِرامٌ يُكرمون الأوفياء
أنت شرقىٌّ وإنّا ساكنوا الشرقِ سواء
أنت فى الاسلام أخٌ نِعمَ هذا من إخاء
أنت من عُربٍ كرامٍ نحنُ أيضاً كُرَماء
أنتَ تأبى كلَّ ضَيْمٍ نحن خَلَّتْنا الإباء
إنّما الايمانُ بَيْتٌ من إخاءٍ ووفاء
أنتَ إحدى لَبِنَاتٍ شِيدَ مِنها ذا البِنَاء

بيننا الإسلامُ سوّى وهو عدلٌ فى القضاء

كثير

جميل تجلّدْ فأنت بخير ونحنُ وراءَكَ نحنُ الفدا

(يعتذر إليه جميل بعد استفاقته)

جميل

كثيّر دبَّ الفناءِ بجسمى وأشعرُ أنَّ حمامى دنا
ولى قبلَ موتى اليكمْ كلا مٌ فهل تسمعونَ حديث الفنا؟

كثير

تكلمْ بما شئتَ قلْ ما تريـ دُ فكلُّ الجوارح سمعٌ صغى

الأمير

تحدَّثْ جميلُ بما تشتهيه تجدْهُ أمامَكَ فوراً أتى

جميل

ماذا تقولون فيمن لم يخنْ أبدا عهداً ولم يكُ سفّاكاً لأى دمِ ؟
لم يقترفْ للزّنا أو يأتِ فاحشةً
أو يشربِ الخمرَ فى نشأ ولا هرمِ

ويعبدُ الله من قلبٍ يُوحِّدُهُ
ويذكرُ المصطفى بالجود والكرمِ

الامير ومن معه

هذا الذى فازَ بالخيراتِ أجمعِها
فمن ترى ذلك الناجى من الألمِ ؟

جميل

هو الذى بين أيديكم يحدِّثكمْ والصدق يملِيهِ ما ألقاهُ من كلمِ

أحد رجال الحاشية

هذا عجيبٌ وأنت اليومَ مشتهرٌ بحب بثنة من دهرٍ ومن قِدَمِ

جميل

قدْ قلتَ حقاً ولكنَّ العفافَ سما
بحبِّنا فغدَوْنا قدْوَةَ الأُمَمِ
وكلُّ ما كانَ من أمرى إذا عظُمتْ
بى الصَّبابَةُ من وجدِى ومن ألمِى

أن آخذ الكفَّ من بَثْنٍ فألصقَهَا
على فؤادٍ عراهُ السُّقمُ من أمَمِ (١)

الرجل

طُوبَى لك اليومَ قد أصبحْتَ فى نِعَمٍ
وزادك الطُّهرُ قَدْراً بالِغَ العِظَمِ

جميل (يدخل جميل فى دور الاحتضار)

ربَّاهُ زاد تحرُّقِى وذُبولى هل من وَفِىٍّ أرتجيهِ رسُولِى ؟

الجماعة

قُلْ : كُلَّنا ذاك الوفىُّ فما الذى ترجُوهُ من شأنٍ هُناكَ جليل ؟

جميل

(إلى كثير)

خُذْ حلَّتَى بعدَ المماتِ وسِرْ بِهَا لِديارِ بَثْنَةَ ناعياً لجميل
واصعَدْ مكاناً عالياً فى حيِّهَا واصرُخْ بقولى عندَ كلِّ أصيل
(صدعَ النعِىُّ وما كَنَى بجميلِ وثوَى بمصرَ ثواءَ غيرِ قفولِ)

(١) الامم : القرب ـ يقال أخذت ذلك من أمم أى من قرب قال الشاعر
ياحبذا لمة بالجزع ثانية ووقفة بين الحى من أمم

(ولقد أجرُّ الذيلَ في وادي القُرى نشوان بين مزارعٍ ونخيلِ)

(قومي بثينةُ فانْدُبي بعويلِ وابكي خليلكِ دون كلِّ خليلِ)

وجزاكِ ربُّكِ أنعُماً عن صحبةٍ كنتِ الوفيَّ خلالَها بجميلِ

(يسمع الأذان قريبا منهم)

الله أكبر الله أكبر

جميل

(في النزع الاخير بصوت خافت متقطع)

لبَّيْك .. يا ربّادُ .. أنت .. دعوتني

فبذلْتُ ...روحي استجيبُ... ندا كا

لا يُذْهِلَنَّك ... يا بُثينةُ ... مصرعي

فهناك ... نحظَى ... باللقاءِ ...هُنا كا

(يسلم روحه فيبكيه الجمع ويلتفون حول السرير يبكون)

كثير

(صارعا وبكيا على الجثة يبكي)

لا خيرَ بعدَك في الحياةِ وما بها رُوحي وجسمي والفؤادُ فِدا كا

الأمير

(وهو يمسح دمعه ويرفع يده إلى السماء)

سبحانك اللهم قد نفذ القضا

يفنى الجميع ولا يدوم سواكا

(ستار)

obeikandl.com

المنظر الثانى

(قريبا من دار الفيئة حيث تظهر على رمل خيامها فى وادى القرى)

(عذرة فى وادى القرى - زيوة عالية على رمل الصحراء يظهر)

(فوقها كثير حاملا حلة جميل وبرفقته أحد رجال حاشيته)

(الامير عبد العزيز بن مروان موفدا من قبله - يبدوان بحالة)

(حزن وبكاء شديدين - يصيح كثير بهذه الابيات بينما يكب)

(ذميله على رمال الربوة باكيا فى ناحية قريبة من كثير)

كثير

شمسُ الطَّهارة آذنت بأُفولِ ... والدَّمع فاض على نَوَاكَ خليلى

والنَّفْسُ تَأْلَمُ والحياةُ بغيْضَةٌ ... مُذْ خُطَّ لحدُكَ فى ديار النِّيلِ

هل بعد نأيك عَوْدَةٌ أو رَجْعَةٌ ... ما للمنايا سَارَعَتْ بجميلِ ؟

قد كُنْتَ سمعى فى الحياةِ وناظرى ... ومنارَ هدْيى فى الورَى ودليلى

فرويتُ شِعرَكَ وهو نورٌ واضحٌ ... يهدِى لخيرِ طريقةٍ وسبيلِ

ولمستُ فيك الطُّهرَ وهو خليقةٌ ... قد توَّجَتْكَ بأرفع الاكليلِ

فقضيتَ نحبَكَ لاهياً على نجمِ الشهى وقضيتَ بين تأسفٍ وعويلِ
ونعيتَ في البيدا حراً صادقاً وثويتَ حيثُ ثوى أسودُ الغيلِ
وقدمتُ أنعى للديار جميلها فوقَ التلالِ وخلفَ كلِّ طلولِ
فبكتْ عليكَ تلالها وطلولها عند الغداةِ وعند كلِّ أصيلِ
وكذاكَ أشجارُ الفلاةِ وطيرُها تبكيكَ بالتغريدِ والترتيلِ
هذا جمادٌ فكيفَ حالُ بثينةٍ وبكاؤها من كانَ خيرَ خليلِ؟
هي لمْ تُخبَّرْ موتَهُ أو تدرِهِ ياليتني كنتُ الفدا لجميلِ
فدعي بثينةُ كلَّ لهوٍ واخرجي وابكي بدمعٍ ساكبٍ وأطيلي
لاتمرحي يا بثنَ قد نفذ القضا وقضى الوفيُّ بأرضِ وادي النيلِ
لاتضحكي والدهرُ كشرَّ نابَهُ وسقاكِ كأسَ الموتِ بعدَ ذهولِ
لاتهزئي إن رجعتُ بغيرِهِ لاتسأليني كيفَ كانَ ذهولي
لو أستطيعُ فداً له لفديتُهُ وبذلتُ روحي منقذاً لزميلي
لكنَّه قدرٌ أصابَ فؤادَهُ فبكاه جمعٌ كان غيرَ قليلِ

إن كان سرّك من زمانك ما مضى فلقد يسوءُك غدرُهُ بجميل
(صدع النعيّ وما كنى بجميل وثوى بمصرَ ثواءَ غير قفول)
(ولقد أجرُّ الذيلَ في وادي القُرى نشوان بين مزارع ونخيل)
(قومي بثينةُ فاندبي بعويل وابكي خليلك دون كلّ خليل)

(تقبل بثينة خارجة من خبائها وهي تتعثر)
(في مرطها وتسير بذهول حتى تقبل على كثير)

بثينة

ربّاه : طال تألمي وسُهادي وعدمتُ طيّبَ راحتي ورُقادي
في لحظة أحسستُ أنّ فجيعةً تدنو وتقتل بالمصاب فؤادي
فجعلت ابكي لستُ عالمةً بما يبكي عيُونيَ أو يُزيلُ رُشادي
حتى سمعتُ الآن ما قد راعني شِبْهَ النعيّ يَصيحُ خلفَ الوادي
ينعى جميلاً : أو يُبشّرُني بما قد هدّ صرحيَ أو أزال عمادي
والله لو كان النعيّ لما نعى إلا حياتيَ قبل حَيْنِ معادي

(ثم تدنو من كثير وهي ترتجف خوفا وهلعا)

ماذا دهانا يا كثير نبّئي ؟ إني عليك أرى التألم بادٍ

إن كان كذباً ما تقول فضحتني أو كان صدقاً قد قتلت فؤادي

كثير

يا بثن ما قد قلت صدقاً فانظري هذي الثياب تجللت بسوادِ
هاتيك حلتُه وذلك ثوبه يا بثن فجعنا الزمانُ العادي

(ويخرج لها الحلة وهو يبكي فتصرخ بثينة باكية معولة)

بثينة

أمات ؟

كثير

أجلْ وقضى نحبه

بثينة

(وهي يغمى عليها)

وا جميلاه

كثير

قد أطلتِ عذابي

زميل كثير

ربّاه قد فطرَ النعيُّ فؤادها لاشيء أصعبُ من فنا الأحبابِ

كثير

(ومقتربآ من بثينة)

هى من سماعِ النَّعىِ فى إغماءةٍ هل بعدَها تصحو و تنظرُ مابى ؟

(تفيق بثينة وتفتح عينيها)

كثير

سبحانك اللهُمَّ قامت بعدَما أُغمىِ عليها من شديدِ مُصابِ

بثنة

(وهى ما تزال ملقاة خائرة القوى)

هيهاتَ : هل أرجو حياةً بعدما

رحلَ الحبيبُ وضُوعفتْ أوصابى ؟

ماتَ الجميلُ فزاد فيه مُصابى وتألَّمتْ نفسىِ وطالَ عذابى

و تساقطَتْ منِّى الدُّموع،فليتَنىِ كنتُ الفِداء بصحَّتى وشبابى

لولم يَكُنْ جَحْداً وفِعلَ نذالةٍ شقَّ الثِّيابَ شقَقْتُ فيكَ ثيابى

لكنَّنى شقَّقتُ قلبِىَ من أسىً أسفاً عليكَ ولم أشُقَّ حِجابى

إن كنتَ أزمعتَ الرحيلَ فإنَّنى عمَّا قريبٍ أستحِثُّ رِكابى

عما قريب نلتقي تحتَ الثَّرى عمَّا قريبٍ : لن يَطول غيابي
ماالعيْشُ بعدَكَ ياجميلُ بنافعٍ ودَّعتُ بعدَكَ مطعَمي وشَرابي

كثير

أقِلِّي النَوْحَ سيِّدتى لقد عُرِّضتِ للتَّلَفِ

زميله

بثينَةُ أَجْمِلِي جَزَعاً بربِّكِ وانهَضِي وقِفِي
فقد أمْعَنْتِ فى ألمٍ وقد بالغْتِ فى السَّرَف

بثينة

(وهى تبكى)

أقوم !؟ وكيف أفعَلُهُ وقلبى دائمُ الرَّجَفِ ؟
ومن أهوى يُنادينى وصِرْتُ على شَفَا جُرُفِ
وبعدَ اليومِ لا أرْجُو حيـــاةً سبَّبَتْ تلفى
تمنَّى الناسُ أن يَحْيَوْا وما بحياتِهِمْ شَغَفِى

(وتلج فى البكاء)

كثير

(وهو مقبل عليها ينهضها)

عزاء ربَّةَ الطُّهْرِ ورمزَ الحُبِّ والشَّرَفِ
وقومي واصبري ودعي بُكاءَ الوالِهِ الدَّنِفِ

بثينة

(وهي تنهض بتثاقل)

أقومُ الى ظُلمِ الحياةِ وغدرِها وتلك لعَمْرِي عيشةٌ لا أعيشُها
نَعَيتَ الىَّ اليومَ نفسي بنعيِهِ
وكيفَ حياةُ النَّفسِ مات حبيبُها ؟
جميلُ ! لقد كنتَ الحياةَ فأصبحتْ
حياتيَ هماً بل دُموعاً أُسيلُها
قَضَيتَ غريباً مالنأيِكَ رجعةٌ
ومُتَّ بأرضٍ قد تناءى مزارُها
قضيتَ ومازوِّدْتُ منكَ بنظرةٍ فليتَ المنايا اخطأتكَ حِبالُها
فياعينُ لاتُبقي دموعاً وقد مضى
وشتَّ فما مِنْ زَوْرَةٍ قد يَزُورُها

وياقلبُ لاتفرَحْ ـ ولاتَكُ باغياً
حياةَ سُرورٍ بعد هذا تعيشُها
فقد كنتُ قبلَ اليومِ أرجو وِصالَهُ
فأصبحتُ أبغي مُنيَةً لا أَنالُها
(وإنَّ سُلُوِّي عن جميلٍ لساعةٌ
من الدَّهرِ لاحانَتْ ولا حانَ حِينُها)
(سَواءٌ عَلَيْنَا يَاجميلُ بنُ مَعْمَرٍ
إذا مُتَّ بأساءِ الحياةِ ولِينُها)
(ثم تسقط فى اغماء بينما يهبط الستار)

(ستار الختام)

بحث وتحليل

تمهيد

لم يرو التاريخ فيما روى قصةً أصدقَ ولا أعفَّ من قصة جميل بثينة التي وقعت حوادثها في عصر الدولة الاموية في خلافة أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ، فكانت مثلاً عالياً لأعفِّ هوًى عُذري اشتهر به بنو عذرة بين سكان الجزيرة العربية حيث طبَّق ذكرُهم الخافقين وغنَّى بعفافهم الركبان ....

فصار الرواة يتناقلونها ويشيدون بذكرها ، حتى أصبحت رمزاً قُدُساً وتُراثاً خالداً وفصلاً حافلاً بما للعربيِّ من عفة وطهارة وعزة واباء . وظلت كذلك حتى أصبحت صحيفة ناصعة من صحف أدبنا العربي المجيد ....

هيكل الرواية

نشأ جميل فى ديار قومه بنى عذرة وعاش عيشة عربية خالصة فى هذه الصحراء الواسعة ، وتحت سمائها الصافية ، وفى جوها الطاهر البرىء أحب بثينة صغيرًا فصدق فى حبه واشتهر فى هواه . فلما شبَّ خطبها فزُفَّت الى غيره ورده أهلها على عادة العرب حينئذٍ من ردِّ كل محب يخطب فتاة عُرف بين عشيرته بحبها . . .

وأُلقىَ ستار المأساة عن موت جميل بمصر بعد أن نال بحبِّه وعفافه أجرَ الشهداء .

مقاصد الرواية

قد تُكتب القصة لتكونَ نقلا لحوادث التاريخ فحسب وقد يُلبس المؤلف هذه القصة ثوباً من الابداع فى الفن لتتقبلها النفس من أقرب طريق ، وقد تكون القصة خيالية يُقصد بها تسلية الشعب ، وفخر القصصىِّ بالابداع فى فنه .

ومن القصص مايوضع للحث على اتباع فضيلة . أو اجتناب رذيلة . أو نقد عادات ضارة ، أو ترغيب فى عادات صالحة . وفى الحق ان هـذا النوع من القصص هو العظة البالغة والحكمة البليغة ، والموعظة الحسنة ، والشجرة الطيبة ، التى أصلها ثابت وفرعها فى السماء .

وقد وُفق المؤلف كل التوفيق فى ناحيتين هما فى الواقع أساس الرواية وثمرة وضعها

أولا : أنه أثبت حوادثها من أوثق المصادر وأوفى المراجع فلم يترك حادثة إلا وقد استوثق منها ورجع فيها الى كثير من كتب الأدب ومراجع التاريخ .

ثانيا : انه جعل روايته مسرحاً لبسط كثير من النظريات العلمية والعادات والطبائع ، وأجرى على لسان أبطالها ما هدم به كل عادة ذميمة ، ورفع به كل حسنة تسمو بالأمة وتسير بها فى طريق التقدم والعمران ، وضمنها المثل الأعلى الذى يجب أن تكون عليه الأمة العربية.

ليعود إليها سالف مجدها ، وغابر عزّها . وسنفصّل لك الكثير من ذلك فيما يعرض عند مناسباته إن شاء الله . . .

لمحة سياسية

وقعت حوادث الرواية فى صدر الدولة الأموية كما أسلفنا فى خلافة عبد الملك بن مروان الذى ولى الخلافة بعد أبيه بعهد منه، وكانت الحال فى البلاد الاسلامية على غاية الاضطراب، فان الحجاز به عبد الله بن الزبير وقد بايعه أهله ، وبلاد العراق أهلها ثلاث فرق : زبيرية قد بايعوا ابن الزبير ودخلوا فى طاعته ، وشيعة تدعو إلى آل البيت ، وخوارج . فتلقى الأمر بقلب ثابت وعزيمة صادقة حتى دان الناس له ، واجتمعت الكلمة عليه . . .

ولا نحسب المؤلف مرّ بذلك العصر مرًّا دون أن يبسُط لك شيئاً عنه . ويشرحَ حال الأمة بازائه .

فأما عن استتباب الأمور ، وقمع الفتن ، وبلوغ الدولة فى هذا العصر قمة مجدها ، وغاية عظمتها ، فذلك ما تعلمه من جواب الشريف القادم من دمشق مقر الخلافة

حينما سأله القوم :

وكيف تركت مقر الخلافة ؟

فيكون جوابه :

ما من بلاد سواها تحب
تركت بها سيدا جهبذاً ينيل المراد ويعطى الأرب
يقيم الحدود بأس الحديـ ـد ويشفق اشفاق أم وأب
وسلطانه فى الورى نافذ ففى كل صوب تراه وحدْب

وأما عن تعلق القوم بأهل البيت وانكارهم للخلافة ان تكون فى غيرهم ، فذلك ما يَبينُ لك جلياً من مناقشة بعض القوم للشريف فى ذلك حيث يقول فى تحفظ وحذر :

شريف القبائل كلت المد يح لمن للخلافة منا اغتصب
وقد كان أولى بهـا أهلها وهم آل طه كرام الحسب

ثم لما يستزيده الشريف بيانا تسمعه يقول وهو أشـــد ما يكون حذرا وتهيباً

اصخ يا شريف سماعك انا بمنعزل عن عيون الرقب
معاوية أصل هذا البلاء وأصل الخلاف وأصل التعب

والقوم وان كانوا يحبون أهل البيت من كل قلوبهم ويهتفون بذكرهم سراً وعلانية ، الا أنهم مع ذلك كانوا يحفظون للصحابة حقوقهم ويأخذون أعمالهم على قاعدة الاجتهاد فى الخير . فهم اذا أصابوا فلهم أجران وإذا أخطأوا فلهم أجر ، لهذا ترى الشريف يجيبه بقوله :

معاوية من صحاب الرسو ل وكاتب وحى النبى الأحب
فان كنت عن صحبه مخبرا فلا تعد فيهم حدود الأدب

إلى أن يقول :

فقل للذى عاب صحب الرسو ل تأدب تجاوزت حد الأدب
همُ فى الجهاد أضاعوا الحيا ة وأنتم أضعتم لها فى اللعب

ووقفة قصيرة أيها القارىء الكريم ، وإلمامة سريعة بما ألمع اليه المؤلف من مكانة المرأة العربية والفتاة المسلمة وما كفله الاسلام لها من حرية الفكر ورجاحة العقل تريك أن الاسلام لم يَحْرم الفتاة حريتها كاملة ولم يُحرِّم عليها تذوق العلم ومدارسة الادب بل تراه دعاها الى ذلك وحفزها اليه .

فهذه فتاة من القوم تقوم فى شجاعة العربية ، وحياء المسلمة فتشارك الرجال رأيهم ، بل ولا تقف عند هذا الحد . فهى تدفع خطأ الرجال ، وتفصل فى كثير من شئونهم حيث تقول :

سعاد :

باذن الشريف ومن فضله ولم لا نخوض غمار الأدب ؟
ولم لا نشاركـكم فى العلو م وابداء رأى وراء الحجب ؟

فلم يكن جواب الرجال غير تقدير المرأة ، وافساح المجال لابداء رأيها ، والاشادة بما وصلت اليه مكانة المرأة إذ ذاك ، وما كفله لها الاسلام من حقوقها كاملة غير منقوصة

الشريف :

أبينى فتاتى ولا تُحجمى فنحن سواء أمام الأدب
فتلك سُكَيْنَةُ فى يثرب محط رحال الكرام النُّجُب
تروض العلوم وتُملى الفنو ن وتروى حديث نبى العرب
وتفصل فى كبريات الامو ر وتحتل فى الفقه أعلى الرتب

فاذا علمت ذلك أيها القارىء الكريم ولمست فى حديث القوم إعجابهم بالمرأة واكبارهم لشأنها ، عرفت أن الاسلام

لم يغمط المرأةَ حقَّها ، وأن المرأة العربية كانت قرينةَ الرجل في البيت ، وصاحبته في السلم ، وسابقته إلى مواقع القتال ، تشحذُ عزيمته ، وتشد أزره ، وتحمي ظهره

وتَهز باليمنى سرير رضيعها لكنَّ باليسرى تقود قبيلاً

هذه بعض النواحي من حياة القوم وشئونهم ، بيَّناها في هذه اللمحة القصيرة ، ولعلَّ تلميحاً أبين من تصريح ، ورُب كلمة أفهمت معنى كبيرا

عادات العرب

التشبيب قبل الزواج

أظهر عادة في الرواية هي رفض القوم زواج العاشق ممن شبَّب بها في شعره ، واشتهر فيها هواه ، والتي يشير اليها المؤلف في عدة مواقف ، فهذا والد جميل ينكر عليه تشبيبه بها إذ يقول:

وقد طاف شعرك أرض الحجا ز وعمَّ المدائن بل والقُرى

تشبّب فيه بها ياجميـ ـل وقد شاع أمرها فى الورى
وأخشى إذا نحن سرنا لنخـ ـطب هذى الفتاة يحول الهوى
ومن عادة العُرْب فى ذا الزما ن يردون خطبةَ صَبٍّ أتى

وهذا والد بثينة يتبرَّم بهذه العادة الضارة حيث يقول :

فبثْنة لاترضى بغير جميلها وذلك عارى فى الحمى ومصابى
فقد طال تشبيباً ببنتى : عمىً له وعادةُ قومى ردُّه عن بابى

ثم تراه فى موقف آخر يخشى العار من وراء مخالفة هذه العادة حيث يقول :

ماذا يقال إذا فضحتُ عشيرتى وسخرتُ من قومى ومن عاداتى
فيُباح عرضى عند كل قبيلة ويحلُّ شتمى من وراء بناتى
ويُقال شيخ ضل بعد مشيبه وغوى : وجلّت عندهم هفواتى
لا ! لاأزوج ذى الفتاة لعاشق عرف الجميع غرامه بفتاتى
حرصاً وصوناً لابنتى ولعرضها من قول زور أو حديث وشاة

وتراه يقول أيضاً فى موقف آخر مخاطباً رباب :

وعادة القوم رفض المحب إذا قال القوافىَ تشبيباً وتنويها

ولا أخالف للأقوام عادتهم مهما يكون فلست اليوم ناسيها

ثم تراه أخيرا يجيب على لوم والد جميل بقوله :

قد كان يفرح قلبي أن أزوجها ممن تحب : ولكن عادة العربِ
وخفت أن يقدح الاقوام في شرفي ويرمقوني بعين المقت والعجب
فما رددتُ نبيهاً دون بُغيته وقد أتاني يمد الكفَّ للطلب

من كل ما تقدم يتَّضح لك مبلغ تقديس القوم لهذه العادة ، وخشيتهم العار من وراء مخالفتها

أثر الاسلام في هذه العادة

جاء الاسلام فأحدث انقلاباً خطيراً في حياة القوم ، وأصلح ما اعوجَّ من طبائعهم ، وهدّم ما فسد من عاداتهم ، وسيطر على قلوبهم ، وهيمن على مشاعرهم ، فبدت لهم هذه العادة وأمثالها قبيحةً مرذولة ، وليس أدلَّ على ذلك من قول بثينة :

عودوا لقول الله في قرآنه تجدوه يحمي حوزة الضعفاءِ

وتدبروا قول الرسول فإنه يُوصى باشفاق على الابناء

إلى أن تقول :

فاطرح بعادات الجهالة جانباً وارجع أبى لشريعة الحكماء

حتى رباب الجارية تنكر ذلك وتستهجنه إذ تقول :

إلهى سمعتُ حديث الطُّغا ة فياللذالة واُلجرأةِ

قد اعتسف القوم فى حكمهم وحادوا عن الدين والملةِ

فلم يُهمل الدينُ أمرَ الفتا ة ولاترك الخلقَ فى غفلة

وهذا والد جميل بدَوْره ينكر ذلك على والد بثينة ، ويبدو احتقاره لعادات الجاهلية واضحاً فى قوله :

فى الجاهلية كانت عادةً لهمُ وكان تقديسُها فى سالفِ الحقبِ

لم تُشقها وحدها لكن جنيت على نجلى وبنتك، قد أخطأتَ لم تُصبِ

اكراه الفتاة على الزواج

ما أقبح هذه العادة الشنيعة ..وما أعظم خطرها ، بل ما أتعس حظَّ فتاةٍ سيقت إلى زوجٍ تأباه ، ولو سيقت إلى نار جهنم

لكان ذلك خيراً لها من هذا العسف الظاهر ، والظلم المبين

تفشّتْ هذه العادة فى الجاهلية ، وكانت سبباً فى هلاك نفوس وخراب ديار ، ودرج القوم عليها فكانت بثينة فى روايتنا هذه قتيلة تلك العادة ، وطعينةَ سكينِها . . .

فهى إذْ بلّغها أبوها خبر زواجها من نبيه تَصيح مُعْوِلة

خاب الرجاء وقد تعاظم دائى وقُتلت ظُلما من يد الآباء

ماذا جنيتُ من الذنوب لتسفكوا دمَ حُرَّةٍ تحيا بكل وفاء ؟

ثم تسأل أباها وهو الذى أكرهها على الزواج :

كيف الحياةُ مع الذى لا أرتضى أم كيف أصبر عن حبيب ناء ؟

ثم تُحمِّله التبعةَ فتقول :

هـذا تحكُّم والد فى بنته ماأظـلم الآباء للأبناء

أثر الاسلام فى هذه العادة

ثم تتأثر بروح الاسلام القوية الناضرة ، فتذكّر أباها بما جاء فيه من نبيل المقاصد ، وعدل الاحكام إذ تقول :

قد كان ظلما قبل بعثة أحمد حتى أتى لحماية البؤساءِ
والآن قد وضح السبيل لسالكٍ يقفو مآثر سادة كرماءِ
لو عاد للاسلام قومى مابغَوْا ولأصبحوا فى غبطة وهناءِ

ومن ذا الذى يسمع بثينة تتبرم بالعادة الشائنة ، وتتغنى بعدل الاسلام فى بكائها وألمها ، ثم لا يبكى إشفاقاً وحسرةً من قولها تخاطب والد جميل وقد جاء لخطبتها :

أنا التى قتلوها جئت تسألُنى أُمنيةً لجميل كنتُ أرجوها
أنا التى سلبوا منها مشيئتها فى غير حقٍ ولادين يُزكّيها
أنا التى أثقلوا بالظلم كاهلَها أنا البضاعة والسفاك شاريها
أنا التى زوجونى غيرَ راضية وحملونىَ أثقالاً أُعانيها
أنا القتيلة من عادات أقدمِهم

تبّتْ : فقد هذّب الاسلامُ جافيها

واسمع ماتقول رباب فى ذلك ، والخطاب لوالد بثينة :

فهل أباح لكم قرآنُ ربِّكمُ أن تحرموا حرّةً زوجاً يواليها؟

وتجبرُوها على زوج تَزَفُّهُ كأنها سلعةٌ تُزْجى لشاريها ؟
لاتحقروا قلب انثى تقتلون به أسمى العواطف فى نبل يزكيها
وزوِّجوا البنت من ترضى إذا كرُمتْ
منه الطباع وكان الدينُ حاميها

وقد تعرض لك هنا شبهة هى : كيف أن رباب ـ وهى جارية ـ تجرأ على خطاب سيِّدها بهذه اللهجة الشديدة القاسية ، ثم لا تلبث أن تزول دهشتك إذا علمت أنَّ حُرِّيَّة الفكر كانت على أشدِّها فى هذا العصر كما أسلفنا ، وأن رأى الفتاة كان محلَّ العناية والاكبار

ذلك الى شعور والد بثينة فى دخيلة نفسه بعِظَم جُرمه الذى أقدم عليه احتراماً لعادة قومه ، وأنت قد تمهَّد له بعض العذر حينما تسمعه يقول :

ولئن بدا للناس أنِّىَ ظالمٌ فالقَيْدُ فى عنقى من العاداتِ

ثم لا يغيب عنك أن رباب حاكمته الى كتاب الله تعالى ، والعربىُّ أحفظُ ما يكون لكتاب الله ، وأرعى لحرماته ،

وأوعى لنصحه، وأرجى لوعده، وأخوف من وعيده، وأشدّ إكباراً له وإجلالاً من كل شيء في الوجود وهو يقرأ فيه بكرة وعشياً (ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ)

فهو إذا لم ينتهرها فلأنّه هاب كتاب الله كما ذكرنا، واستشعر ذنبه فاكتفى بقوله:

لا يارباب فأنتِ اليوم واهمةٌ فقد قبلتُ نبياً لا لأشقيها

صور تحليلية

لأهم أشخاص الرواية

جميل

حب صادق الصبابة

ذلك مالا مرية فيه ولا جدال، فلم يخلُ جزء من الرواية إلا وفيه دمعة تسيل، أو أنّة تتصاعد، وكلها تشهد بصادق

حبّه ، وخالص صبابته ، فهو إذا سمع لحناً هاجه اللحن ، واستدرَّ دموعه ، فلا عجب إذا قال :

بثينة أجرى اللحن دمعى وإنّنى بسكب دموع العين فيك قمين

وانظر جوابه للشريف حينما دعاه الى الصبر وعدم الجزع إذ يقول :

تصبرتُ جهدى سيدى غير أننى أرى الصبر يُنمى حبَّها ويزيد
فلست بسالٍ عن بثينة ساعةً (ولا حبُّها فيما يبيد يبيدُ)

بل ومالى لا أعرض عليكَ شهادة الشريف لجميل ، وقد لمح فيه حقيقة الحب ، ومخايل النبل إذ يقول :

أراه محباً صادقاً فى وفائه علاهُ كشئاب دائم ونحولُ
وفاء على رمل الصحارى وقفرها وغدر بقصر يزدهى ويطولُ
ونبلٌ تُغطّيه ثياب خليقة وما فى ثياب الخزّ منه مثيلُ

تلك الناحية من صفات جميل لا معنى للافاضة فيها ، إذ هى أبيَنُ صفاته ، وأوضحُ خصائصه . . .

وفى لا يتحول

وهذه أيضاً ظاهرة قوية، لا تكاد تخلو منها ناحية من روايتنا، فبينما يقول جميل :

(شهدت بأنى لم تَغَيَّر مودتى وإنى بكم حتى الممات ضمين)
(وأن فؤادى لا يلين الى هوى سواك وان قالوا بلى سيلين)

إذا به يقول :

يا كثير : ذكرُها فى خاطرى وسلوّى عن هواها لن يكونْ
قد قضينا فى الهوى عهد الصبا ووفينا لم نكن بالخائنين

ثم إذا بك تسمعه يقول :

يقولون أعرضْ عن هواها لغيرها عفا الله عنهم إنَّ ذا لجحود
حياتىَ رقف للوفاء وبَتَّة وكل وفى فى الورى سيسودُ
وعهدىَ محفوظ ، وقلبى طاهر وبرهان حُبى ثابت وأكيد

وهذا راويته كثّير يُكبر فيه هذه الفضائل بقوله :

صحبتك دهراً كل ما فيك طيب وكل الذى تأتيه منك جميل
وفاء، وإخلاص .وحُبٌ،وعفةٌ فأنت فريد فى هواك نبيل

نسيتَ بمن تهوى الحياةَ وما بها وكلُّ متاعٍ فى الحياة يزول

عفيف لبقيرل

تلك الصفة هى مفخرة جميل حقاً ، وهى التى أذاعت صيتَهُ ، وأطارت ذكرَه ، فاذا ماذُكر جميل ذكر العفاف ، ونشرت أجنحةُ الطهر ، ورُكز لواء المحبة والجلال . . .

جميل الذى يكفيه أن يرى بثينة فتطيب نفسُه ، أو يسمعَ حديثها فتَقَرَّ عينهُ ، أو يزورَها كلَّ عامٍ مرةً فيجلس بجوارها يُرتِّل أناشيدَ العفَّة ويتلو آياتِ الوفاء إذ يقول

وانى لأرضى منك بالنظرة التى لها كل نُبل فى الخصال معانِ
فلو كان حكم الحق للناس شِرعةً لخلَّوْ سبيلَيْنَا بكل مكانِ

ويقول أيضاً

كم من محبٍ قد جنى باسم الهوى وهواى عُذرى جليل الشانِ
أنا من أُناسٍ ان أحبُّوا برهنوا عن طهرهم بمتانة الأيمانِ

وهو نفسه القائل يخاطب بثينة :

هاتى يمينَك فوق قلبى لحظةً حتى تُخَفَّف مابقلبى العانى
فلذاك أقصى ماأطالب فى الهوى والقربُ بالأرواح لا الأبدان
كم مرةٍ حاولتُ منكِ تقرُّباً بالجسم ، لكنَّ العفافَ نهانى

فهو يكتفى من بثينة بأن يضع يمينها على قلبه المتقد ، الممتلىء عفة وطهارة ، الجياش بالنُّبل وصدق العاطفة ، الذى يفيض هوى عبقرياً ، ويذوب غراماً عذرياً

يكتفى بأن يضع يمينها عليه فيهدأ روعُه ، وتسكن عاطفتُه ، ويعبر عن هذا المعنى بقوله أيضاً :

وكلُّ ما كان من أمرى إذا عظمت بى الصَّبابةُ من وجدى ومن ألمى
أن آخذ الكفَّ من بثن فألصقها على فؤاد عراه السقم من أمم

صادق الابتهال

هذه ناحية هامة فى صفات جميل ، أبرزها المؤلف فى قوله عند ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم :

نفسى فداء للرسول فانه فاق الملوك وفاق كلَّ جوادِ

برٌّ بأمّته رحـــيم عادل وحديثة فى الغَوْر والأَنجاد
يرى العهود ويحمل الكَلَّ الذى عجزتْ يداه عن الوفا وسداد

وتراها كذلك ظاهرة فى قوله عند سماع الأذان

أسمعتِ ما هذا النداء بثينةً هذا نداء مؤذن بفراقِ
هو للصلاة وللعبادة والنُّهى يدعو كرامَ الخلق للخلاق

وتظهر هذه الصفة بأجلى صورها فى حالة احتضاره وهو يخاطب الأمير وحاشيته بقوله عن نفسه :

ماذا تقولون فيمن لم يَخُنْ أبداً عهداً ولم يكُ سفاكاً لأى دمِ
لم يقترف للزنا أو يأتِ فاحشةً أو يشرب الخمر فى نشء ولا هرَم
ويعبد الله من قلب يوحِّده ويذكر المصطفى بالجود والكرمِ

بر بوالديه

فقد ذكر أُمَّه ، وحنَّ للقائها عند وداعه لبثينة حيث يقول :

فلأرجعنَّ الى الديار مفاخراً بالطُّهر فى دينى وفى أخلاقى
فهناك أمِّى يا بثينة مالها غير الدموع تُسيلها لفراقى

كم ليلة باتت تؤانسُ وحدتى وتَسيلُ من عطفٍ ومن إشفاق
الأم تُشفق والبنون يقودُهمْ شيطانُهم لاماتةً الاخلاق
جحدوا حقوقَ الأمومة ويحهم من غضبة للواحد الخلاَّق

وأجاب أباه من فوْره حين استدعاه فى أول الفصل الثانى وهو فى حال ذهوله وحنينه حيث يقول :

ولكنَّه الأب للخير يسعى وواجبنا أن نطيع الأبا
فقم ياكثيِّر قم علَّه يُزيل الهموم ويشفى الجوى

شجاع مقدام

تعرف ذلك من قوله أولاً عند وداع بثينة :

وبطن كفِّى صارمى ومُهنَّدى لولاكِ ماوجدوا لهم من واقِ

ويزيدك معرفةً قوله لنبيه بعد أن خاطب بثينة بقوله

دعيه بثينـــة حتى أريـ ه صنوف الهلاك ومعنِ الألمْ
وانت استعدَّ لهذا الحِما م تسير به فى طريق العدم
وخذ أهبة لحياة الخـــلو د فموتُك أمر قريب حَتَمْ

ثم تنجلى المعركة عن هزيمة نبيه وظفر جميل عليه

نبيل الخلق

فهو يعفو إن قدر ، ويقابل السيئة بالحسنة ، ويَفُكُّ أسْرَ العانى ، ويُعين على نوائب الدهر ، ويَقبل شفاعة بثينة فى نبيه قائلاً :

من أجل حُبِّكِ قد صفحـ ـتُ وهذه أخـلاقيَهْ
فلعله أن يرعوى أو يقتدى بصفاتيه
أعفو وأصفح ان قدر ـت على العدوّ الباغيهْ
وإذا أساء جـزيتُه بالجود من احسانيهْ

بثينـة

تلك فتاة من بنات يعرب ربَّاها الأسلام ، وهذَّبها العلم والعرفان ، ونمتها الجزيرة العربية ، وأخرجتها بطون العرب التى تأبى الضيم ، وتحفظ العهد ، وتحمى الجار ، وتأبى العار ..

وانّك لتلمح فى سيرتها حقيقة الطُّهر ، ومخايل النبل ، وصادق العفّة ، وطهارة الذيل . حتى بلَغَتْ أعلى قمةِ مجد بما اتسمَتْ به من عزّة وإباء.

أحبَّتْ جميلا فسعَتْ اليه ، وذللّت الصعابَ فى سبيل لقائه ، فلم تعبأ بها ولم تأبه لها ، إذ تقول مخاطبة جميل :

فليتَ الصِّعاب عبورُ طري ق وسيرٌ بليلٍ برأس الجبل
وأنت قريبٌ اذن لهنئ تُ بنيل المراد وكسب الأمل

فلما أشرفَتْ عليه ، ومدَّ اليها ذراعيه ، وأراد أن يَخبُرَ عفافها وهو به عليم ، ويُداعبها كما يُداعب العليلَ النسيم ؛ إذ يقول لها :

دعينىَ من وصف البعاد وأقبلى وخلى حديث الصدّ والهجرانِ
أنيلى فؤادى منكِ وصلا مُدانيا لأطفىءَ مانى من جوى النيران
فليس علينا ههنا من رقابة فلا عينَ تُؤذينا ولا أذنان

فماذا تنتظر أن يكون جوابُ فتاة مثل بثينة ، فتاة عاشقة محبوبة ، شابة فتيّة ، سرَتْ الى محبِّها ليلاً ، وسعت اليه فى

دُجنّةَ الليل وقفر البادية ، لا يراها أحد ، ولا يرقبها انسان ..

ولكنّ الفتاة العربية المسلمة ، لم تتعوّد سماع هذه الألفاظ ، ولم تجد لها فى نفسها مساغاً ، فهى لم تَخضع لريبة ، ولم تُخدع بلين ، ولم تَسْعَ لفاحشة ، ولم تُدعَ الى خيانة ، ولم تكن نفسُها إلا مرآةً صافية تنعكس عليها أشعّةُ الطهر ، وتظهر خلالها آياتُ النُّبل والجلال

فليس بدعاً أن تنأى منه ، وتنفر عنه ، وتغضب لكرامتها ، وتقفَ وقفة الليث لا تُفَلُّ عزيمتُه ، ولا يُباح عرينُه ، فهى أمنعُ من عقاب الجو ، وأسمى من أقلّتها أجنحة الطهر الى سماء العزّة والإباء . . .

وليس غريباً أن تخاطبه بقولها :

تنحَّ جميل ! ماعهدتُك ماجناً ولاعهد لى بالفسق والخسرانِ

ثم تذكر عظمة ربها ، وتخشى بطشه ، وتخاف عذابه ، وتستحى من الله أن يراها فى غير طاعة ، أو يكتبها فى الأخسرين أعمالاً (الذين ضلّ سَعيُهم فى الحياةِ الدُّنيا وهُم

يَحسَبُونَ أنهم يُحسنونَ صُنعاً) فهى تناشده الله بقولها :

نسيتَ بأنَّ الله يرقبُ أمرَنا ولم تخش مايختطه الملكانِ
فتباً لقلب لم ير الله فوقَهُ ولم يخش بطش البارئ الرحمن
ولم يستمع صوت الضمير يُناده تجنب سبيل الغيِّ والخسران

ثم تعتزُّ بجنسها ، وتدافع عن أترابها ، وتحمل على أولئك الأفاكين ، الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات ، الذين لُعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم ، فهى تسأله فى قوة إيمان وثبات يقين :

فى أى عصر أسرفت بنت يَعْرُبٍ تَسوم عُروضاً بالمتاع الفانى ؟
لقد وصفوها بالمجون وقاحة وجاءوا بقول الزور والبهتان
ألم تر قوم الافك كيف تجمَّعوا يعيبون فى عِرض رفيع الشان
فردَّ الهُ العرش أقوالَ أفكهم وبرَّأها بالوحى والقرآن

ثم تصف مناعتها وحصانتها بقولها :

فلو تَرقَ يوماً للسماء بُسلَّمٍ وأضحى قريباً فالبعيد الثانى

سأسمو بطُهرى فى الورى ونزاهتى

وأعلو مع العُقبان بالطيرانِ

كل هذه الصفات . وتلك الخلائق ، تفتن جميلاً بها ، وتملأ نفسه منها اعجاباً واكباراً . وتُطلق لسانه بقوله :

بروحيَ هذا الطُّهر ، والنبل ، والتقى أقمتِ عليه واضح البرهانِ

فوالله لم أبغ الفسوق ولا لهُ على قلب أهل الطهر من سلطان

ولم أبغ الا أن يلذَّ لمسمعى دفاعك عن حق وطُهر جَنان

فليس فخار البنت غير عفافها وعلمٍ يُجلّى الحق بالبرهان

ومنكِ عشقت الفضل ، والعقل ، والحِجَى

ولم أعشق الجسم الحقير الفانى

وإنى لأرضى منك بالنظرة التى لها كل نُبلٍ فى الخصال معانِ

فلو كان حكم الحق للناس شِرعةً لخلّوا سبيلينَا بكل مكانِ

فيجيب أبوها وهو مختبئ يرقبهما :

سنُخلى سبيل الطهر بعد وضوحه

ويردف أخوها بقوله : وجادت عليه رحمة الديان

(ويخرجان)

وعلى ذكر والدبثينة وأخيها فقد تعرض لك شبهة فى موقفهما من مراقبتها ، فقد وثب أبوها بينما اجفل أخوها وتراجع ، وقد كان الأولى أن يأخذ كل منهما مكان صاحبه

ولكنك إذا علمت أن أخاها كان أكثرَ اطلاعاً على أحوالها من أبيها ، وقلبُ الشباب خفاق ينبض للحب ، ويتأثر بالعاطفة ، وهو وإن كان وثاباً الآن الموقف أصبح واضحاً أمام أخيها ، فهو يعرف منه مالا يعرف أبوه الذى يخشى العار بين القبائل ، وهو من أعرق بطونها ، وأشرف بُيوتاتها ، ووقوعُ التبعة هنا أقوى على نفس الوالد من نفس الابن ، لأن الوالد هو الذى تسوء سمعته بين القبائل ، وتضيع مكانته فيها . . .

ثم لا تنس ما عرض للأخ من ذكر قول الله تعالى فى كتابه (يأيُّها الذين آمنوا إن جاءَكم فاسقٌ بنبأٍ فتبيّنوا أن تُصيبوا قوماً بجهالةٍ فتُصبحوا على ما فعلتم نادمين) فهو يقول لوالده

أبى لا تعجَّل بسوء الظنو ن لعلَّ المخبر واش كذَبْ
وان جاء بالأمر أهل الفسو ق تبيَّنْ ولا يأخذْنك العجب

فلما خطر له ذلك ذكَّر به أباه فوقفا وأنصتا ، وما ذلك الا لما أحدثه القرآن فى نفسيهما من جميل الأثر ، واطمئنان النفس ، لأنهما يقدسانه ويكبرانه ، ويعلمان أنه كتاب الله الخالد الذى (لا يأتيهِ الباطلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيهِ وَلاَ مِنْ خَلفِهِ تنزيلٌ مِنْ حكيمٍ حَميد) ....

وبثينة وفية صادقة الحب ، عالمة بسموّ مقاصده ، ويظهر ذلك فى قولها :

. . . . . والحب يسمو اذا ما الطهر وافاهُ
أُحسُّ بعد جميل لوعةً وأسى لا عهد لى بهما فى وقت لقياه

شُجاعة أبيَّة ـ فأمَّا شجاعتها فحيث تحاجج والدها وتستنكر تصرُّفه فى كثير من مواقفها ، اذْ تقول فى أحدها :

هذا تحكم والدٍ فى بنته ما أظلم الآباء للأبناء

وإذْ تخاطب والد جميل بقولها :

أنا القتيلة من عادات أقدمهم تبّت فقد هذب الاسلام جافيها

وأما إباؤها فحيث تُفضّل الموت على سؤال بخيل لا يجود ، وشديد لا يرحم فتقول :

والموت خيرٌ من حياة نبيلة عذراء تستجدى يدَ البُخلاء

رقيقة الشعور نافذة البصيرة ، وأنه ليأخذك العجب من قولها :

رباه ما ضلّ الوفيُّ وما غوى فبكاؤه قد رنّ فى آذانى

وأراه ان شتّ المزار وأنّه فى البُعد يسمع أنّتى ويرانى

والحُبُّ إن قويت دعائمه سما ونما على الأيّام والأزمان

فهل رأيت بصيرة أنفذ ، وعاطفةً أقوى ، وطهارةً أكبر ، من بصيرة بثينة وعاطفتها وطهارتها ؟ . . .

وإنّ مما يأخذ العين ، ويفتن القلب ، ويبعث على الاعجاب ، هذه الظاهرة الغريبة فى خلق بثينة ، إذ تذوب على البائسين رحمة ، وتبكى حناناً

وما أشرف نفسها ، وأطهر قلبها ، وهى تخاطب جاريتها ، وتوصيها بالبائس الفقير أن ترحّب به وتهش له حيث تقول

قومي رباب فأدخليه وأكرمي مثواه لايشكو من الاسواءِ
لاتنهريه ورحبي بقدومه طوبى لمن يحنو على الغُرباءِ
لاتحقري شأن الفقير فتجرحي احساسه تحظى بخير جزاء
نحن الفقير نجله ونحبُّه ونعزُّه كمعزَّة الأبنـــاء

ثم هي في النهاية وفية لزوجها ، حافظة لعهده ، آخذة بالفضائل من عادات قومها ، فهي تقول لجميل :

والله لو يُرضي الفضائلَ أنني أدَعُ الديارَ رحلتُ منذ زمانِ
لكنني صُنت الزواجَ وحقَّه وبكيتُ بالدمع الغزير القانئ

فهل رأيت عفة كعفتها ، ونُبلا كنبلها ، وشجاعة كشجاعتها ، وإباء كإبائها ؟ وهل رأيت أوفى منها لعهد ، أو أرعى منها لذمّة ، أو أحنَى منها على فقير بائس ، أو أرفقَ منها بطريد منكوب ؟

لابِدْع ولاغرابة ، فكفاها شرفا شهادة والد جميل لها إذ يخاطب والدها بقوله :

وفي بثينة طهر ماله مثلٌ بل اطلاع على الأديان والكتبِ
قد صاغها الله من نُبل وعاطفة وأوقد الشوق فيها جذوة اللهبِ

بل كفاها سمواً وبُعد صيت بَيتُها الخالد الذى تخاطب فيه جميلا حيث تقول:

حُبِّى كحُبِّك عفةً وطهارةً وبهذه الأخلاق فقتُ زمانى

الامير عبد العزيز بن مروان

هذه شخصية قد تبدو لأول وهلة دخيلة على الرواية، ولكنها لعبت فيها دوراً خطيراً، واحتلَّتْ منها مكاناً مهماً، فلا بِدْعَ إذا اعتبرناها إحدى شخصيات أبطال الرواية، وأفسحنا لها مكاناً منها...

الأمير عبد العزيز بن مروان هو ابن مَرْوان بن الحَكم ابن أبى العاص بن أُميَّة القرشىّ الأموىّ أمير مصر، كنيته أبو الأصْبَغْ، مولده بالمدينة، ثم دخل الشام مع أبيه مروان وكانت داره بدمَشْق، هى الدار التى للصوفية الآن المعروفةُ بالسُّمَيْساطية، ثم كانت لابنه عمر بن عبد العزيز بعده.

وولى إمرة مصر لأبيه مَرْوان فى غرة رجب سنة خمس وستين على الصلاة والخراج معاً ، بعد ما عُهِد له بالخلافة بعد أخيه عبد الملك . . .

قدم عليه جميل لما أُهدر دمه ، فأحسن وفادته وأكرم مثواه ، ولما أبداهُ الامير نحو جميل من صادق العاطفة وعظيم الرحمة ، كان حقاً علينا أن نُثبت شيئاً من صفاته وأحواله ، ولنبدأ منها بالصفة الأولى

اكرام الضيف

بَيَّنَ المؤلف ذلك فى أكثر من موقف ، ويبدو لك ذلك من حديث رجال الحاشية الذى ابتدأ به الفصل الرابع حيث يقول:

أحد رجال الحاشية

إنى أرى أنَّ الأمير مفكر وبمقدَم الضيف المتيم يحتفى

رجل آخر

إنَّ الأمير على الزمان مساعدٌ

يُؤوى الغريبَ ويرحم الصَّبَّ الوفى

بذله وكرم نفسه

فأما أنه كان باذلاً كريماً ، فذلك ماامتلأت به سيرته ، فهذا أحد رجال الحاشية يقول ....

انى لأذكر موقفى يوماً وقد شاهدته يُعطى بغير تكلفِ
ويقول انَّ المال عارية اذا أنفقته فى الخير كان مُشرِّفى
لاتُغلقوا بابى فما بذلى سوى ذكر يخلَّد ، أو ثواب مسعفى
ما المال والأولاد إلا زينة والباقيات معينتى فى موقفى

تقريره للشعب له ، واتفاق الناس حوله

لا أكلف النفس فى بيان ذلك ، إلا أن أعرض عليك هُتاف الشعب الطَّرِب الجذلان ، الذى خَلُص من عسف الرومان وجَوْرهم ، وشمِلَهُ عدلُ الاسلام وسماحةُ العرب ، فهو يحتفى بالأمير ، ويتقبَّل عطاءه بالشكر والاطراء اذ يقول :

عش يا أمير فى هناء لا زلت تُرجى للعطاء

وعليك ألسنة الثناء تُطرى على مرِّ السنين

الى آخرما ينم عنه الهُتاف من فرحٍ بحكم العرب، وترحيب بعدل الاسلام

سهره على الرعية، ورحمته بالفقراء، وعنايته بالثقافة

ليس أدل على ذلك من قول الأمير نفسه يخاطب رجال حاشيته.

الامير

من كان يبذل ماله لبلاده ولرفعة الاسلام ليس يضامُ
ماذا يفيد المرء من مال اذا بات الفقيرُ على التراب ينام؟
أنا ان بذلت فللمروءة والنَّدى وعليهما قد دلَّنا الاسلامُ
أنا ان بذلت فللرعية أوفها حقا علىَّ فاستُ عنه أنامُ
أنا ان بذلت فللمساجد أبنها ولدور علم فى البلاد تُقام
أنا ان سهرتُ على الرعية لم ينم عمر ولم يعذب لديه منام

وانّ هذا الموقف من الأمير حقاً لرائع أخّاذ، فقد

وُفق المؤلف فى تصويره أدقَّ تصوير ، وجعله من أروع مواقف الرواية ، وأنبل مقاصدها . والقصيدة طويلة يتحدث فيها الأمير عن نعمة الله عليه إذ وفقه الى أن يبذل ماله لبلاده ولنصُرة دينه ، وأن يكون مِعواناً على الدهر ، رحيماً بالضعفاء ، ذا نجدة ومروءة ، يشيد المساجد ، ويبتنى دور العلم ، ويسهر على الرعية كما سهر الأولى قبله من أمراء المؤمنين سادةِ العالم وقادة الأمم والشعوب . الى آخر ماورد ذكره فى الموقف فارجع اليه فى أصل الرواية إن شئت ، فإنَّ فيه عظة وذكرى

رعايته لعهر أقباط مصر

الاسلامُ دينٌ كفل حرِّية الفرد ، وحرية الجماعة ، وأطلق للفكر عنانَهُ ، ووزن الأمور بميزان العدل ، وقضى بين الناس بالقسطاس المستقيم . فهو يحفظ للذمىِّ حقه ، ويرعى جوار القبط ، ويُعنى بمصالحهم ، ويوصى بهم خيرًا ، وهذا رسول الاسلام صلى الله عليه وسلم يقول :

(ستُفتح عليكم بعدى مِصرْ ، فاستوصوا بقبطها خيراً فإنَّ لهم ذمَّةً ورَحما) . . .

اذا علمتَ ذلك هشَّت نفسك لموقف الأمير البالغ غاية العظمة والعدل معاً ، حينما قدم عليه وفد النصارى لبسط ظلامته بين يديه ، فما كان جواب الأمير ؟

الامير : فليدخلوا من وقتهم لاتمنعوا عنِّى أحدْ

فلهم علينا ذمَّةٌ تُرعى، وعهد لا يُرد

الى آخر مايطالعك فى ثنايا الموقف من وحدة قوية . وائتلاف بين العنصرين ، ورعاية للمصالح ، وحفظ للعهود ينتهى أخيراً بأشرف غاية ، وأنبل مقصد ، هو الاتحاد والائتلاف لصالح البلد واسعادها . . .

فما أبهج هذا الموقف وما أجمل تصويرَهُ : أميرُ المسلمين يصافح كبير القبط صائحاً

ربَّاه هذا عهدُنا نرجو به خير البلدْ

طاعة لأمير المؤمنين

وانظر موقفه حينما تُلِيَ عليه خطابُ أمير المؤمنين . وإن شئتَ فقل دستور العدل ، ونظام الحياة ، في أبيات يضمنها أمير المؤمنين مواعظه لوُلاته وعُمَّاله ، وتذكيره لهم بكبر التبعة ، وعظيم المسئولية ، فبماذا أجاب الامير ؟

الامير صدق الخليفة: رب وفقني الى انفاذ أمرك يا أمير المؤمنين

عناية بجميل

وهو مع كل هذه المشاغل الكثيرة ، والمهامِّ الخطيرة ، لم ينس جميلا ولم يُهمل ذكره ، اذ يخاطب رعيَّته بلهجة المهتم المشفق :

قوموا لنسألَ عن جميل انني خلَّفتُه يشكو من الأحزانِ

وما أعظم هذه الشخصية الفذَّة ، ومَا أنبلها وأجلَّها تجثو على جميل تُخفِّفُ لوعَته ، وتُواسي ألمه ، وتُخاطبه في رقة وحنان

لا بأس يا رمزَ الوفاء ولا تكن متأثراً بوساوس الشيطانِ

فلئن بَعُدتَ اليوم فاصبر فى غدٍ تحظى بنيل سعادة وأمانى

وفاؤه للشرق ، واجلاله لمصر

حتى اذا شعر جميل بغربته ووحدته ، وبكى لفراق قومه وعشيرته ، خاطبه الامير بقوله :

يا جميل لا تبالغ فى التأسف والبكاء
أنت بين الأهل فاعلم أنتا أهل الوفاء
مصر تؤوى كل حر وتجلُّ الغرباء
مصر اهلوها كرام يكرمون الأوفياء
انت شرقى وانَّا ساكنوا الشرق سواء
انت فى الاسلام اخ نعم هذا من اخاء

فعبَّر بذلك عن أصدق عاطفة وفاء للشرق والاسلام ، واجلال لمصر وأهلها . . .

ونختم الحديث عن الامير بموقفه عند موت جميل ، فتصوَّر أميراً أحبَّه الشعب ، ودانت له الرقاب ، يبكى كالطفل الصغير أو الأم الثكلى لوفاة جميل :

وهو فى بكائه أشد ما يكون ايماناً وتوحيداً

الأمير : سبحانك اللهم قد نفذ القضا

يَفنى الجميع ولا يدوم سوا كا ،

ثم هو يُرسل رسولاً من قبله فى رفقة كثير ليُنفذ العهد ، ويؤدى الرسالة ، ويَنعى جميلا لمن كان أحبَّ مخلوق لديها ، وأعزَّ عزيز على نفسها

فما أجَلَّ هذه الطبائع ، وأنبَلَ تلك الشمائل ، وبمثلها تَتَمَيَّزُ الرِّجال . . .